روايات رومانسية عالمية

عبير

جانيت ديلي

وردة قايين

مكتبة زهران

روايات رومانسية عالمية

عبير

وردة قايين

هل قتل
جايسون سافدج اخاه كما
فعل قايين فى بدء الخليقة؟ وهل
تطارده تلك الليلة الرهيبة حين سقط اخاه بين
اقدام ثور هائج؟ عندما رحلت كونين مع شقيقها دانى
الى مزرعه خالتهما لم تكن تعرف اى واقع مؤلم
ينتظرها هناك. لم تكن تعرف حجم الكراهية التى
ستواجهها ولا سبب ذلك الجرح العميق فى وجه الرجل
الخشن الذى انقذها ليلة العاصفة .. لكنها كبرت فى
وقت قصير, لم تعد طفلة. لم تعد وردة صفراء
سريعة العطب , وعلى جايسون سافدج ان
يفهم ذلك تماما.....

جمهورية مصر العربية - القاهرة
١٧ شارع الشيخ محمد عبده - خلف الجامع الأزهر

١ ـ مطر... مطر

توهجت شعلة من الضوء وسط السحب الملبدة بالغيوم، تبعها صوت الرعد الذي يجفل القلب، فارتفع نبض «كرلين ماكغوير» وتشبثت أصابع يديها بمقعد السيارة حيث كانت تجلس، وظلت عيناها مثبتتين على الزجاج والماسحات تحاول جاهدة، في يأس قاتل، أن تزيل المطر المتساقط بغزارة، ثم تطلعت في خوف واضح الى أخيها الذي كان يجلس وراء عجلة القيادة. وقالت له بصوت يشوبه الاضطراب، وإن كانت قد بذلت جهدها لكي تخفيه:

«داني... ألا تظن أنه من الأفضل أن تتوقف؟»

قال بدون أن يحيد ببصره عن الفراغ الممتد أمامه:

«أين تقترحين أن نقف يا «كرلي»؟ اذا توقفنا الآن، فمن المحتمل ألاّ يبدأ المحرك في الدوران ثانية».

رأت «كرلي» الماء ينهمر على السيارة، فتمتمت قائلة:

«كان يجب أن تأخذ برأي الرجل وتعود الى الكاراج».

قال «داني» بحدة:

«المسافة التي قطعناها تبلغ ثلاثين ميلاً... وكان المطر رذاذاً عندما بدأنا الرحلة».

وكان «داني» قد انتابه التوتر وهو يقود السيارة عبر طريق «تكساس» المتعرج، ولذلك أردف يقول بالحدة نفسها:

«كيف كان لي أن أتنبأ بأن الطقس سوف يصبح على هذه الصورة؟»

«ولكن الرجل قال ان المطر سيكون سيئاً في الجبال، وقد يتعرض الطريق للفيضان.. وهذه اللافتات التي نراها..»

توقفت كولي عن مواصلة الحديث.. اذ لاحت احدى لافتات الطريق، على ضوء الكشافات الأمامية للسيارة، ثم أستطردت تقول:

«في الجو الممطر يجب أن تنتبه عندما تقترب من مفترق الطرق».

صمتت ثانية. وندت عن صدرها صرخة خائفة، وقالت:

«أوه، داني، هناك لافتة أخرى».

«كولي.. ألا تكفين عن الحديث عن هذا المطر والرعد؟ ألا تكبرين وتتخلصين من مخاوفك الطفولية؟»

وتشبثت أصابعها بعجلة القيادة.. وكأن حياته تتعلق بها، وروحه، لا تحب أن تفارق جسده. ثم تابع كلامه قائلاً:

«سننجح فلا تقلقي».

رسمت كولي ابتسامة على شفتيها.. وحاولت أن تبتلع مخاوفها وأشاحت بوجهها، وتطلعت عبر النافذة المجاورة، وأخذت تقضم بلا وعي أحد أظافرها، بينما كانت عيناها تراقبان الأضواء المتناثرة فوق التلال والجبال، وخيّل اليها أنها ترى أشباحاً تتطاول قاماتها في الفضاء، وعيناها ناعستين، واسعتين، وشعرها البني تتأرجح خصلاته وراء أذنيها، ومع هذا.. كان سحرها الطفولي جذاباً.. ويبشر بجمال غير طبيعي عندما تبلغ مرحلة النضج.

أبطأت السيارة الشفروليه القديمة في سيرها عندما بدأت تخترق مفترق طريق تغمره المياه.. فأدارت كولي رأسها، وتطلعت الى داني الذي شعر بارتياح عندما نجح في اجتياز بركتين من الماء، وبدأت العجلات تطأ أرضاً صلبة مرة أخرى. وسألته:

«لماذا أقيمت هذه اللافتات؟»

كانت كولي تحاول من خلال الحديث أن تتغلب على الاضطراب الذي بدأ

يعيش في أعماقها، وكانت تدرك أن أخاها بدأ يقلق بدوره. وعندما فشل في العثور على اجابة سريعة، كررت سؤالها فأجابها:

«انها لافتات تحذر من وجود نسبة مياه مرتفعة».

وكشف وجهه عما يعانيه من توتر نتيجة قيادة السيارة، وتطلع بقلق الى شقيقته قبل أنْ يعود ببصره الى متابعة الطريق. ثم قال:

«أنا متأكد أنه لم تبق أمامنا مسافة طويلة».

وبالرغم من محاولته تهدئة شقيقته فان مخاوفه المتزايدة أثارت مزيداً من اضطرابها وكان داني أصغر منها بعشرة أشهر، لكنه كان دائماً يحتل مقام الأخ الأكبر بالنسبة اليها، يراقبها ويحميها برغم أنها بلغت العشرين من عمرها. قالت:

«كان من الأفضل أن نخبر الخالة فيلهلمينا قبل قدومنا. على الأقل حتى يعرف أحدهم أننا هنا. لماذا لم تتركني أكتب اليها، وأخبرها؟»

انفلتت ضحكة ساخرة من شفتي داني. ولم يكن يرغب في أن يعبّر عن مشاعره الحقيقية لأنه يعرف أن شقيقته رقيقة القلب لا تعرف أن كثيراً من الناس يقدمون المساعدة بدون أن يكونوا جادين في رغبتهم. أنها لم يلتقيا بالخالة فيلهلمينا ولذلك تعمّد ألا يكتب لها خشية ألا ترحب بدعوتها للاقامة معها.

راح داني يتطلع الى شقيقته وهي قابعة في المقعد المجاور له وجفناها يضطربان كلما برقت الأضواء أمام عينيها، وأخذ يتأمل قوامها النحيل. وثوبها الرخيص.. قبل أن يشيح بوجهه عنها.. ثم حدث نفسه قائلاً: «يا لها من حياة قاسية عاشتها أختي».

وكانت هي الحياة القاسية نفسها التي عاشها هو بدوره. اذ ترعرعا في كنف والد ماجن وحاول داني أن يحمي شقيقته من معاملة الأب السيئة قدر الامكان، اما هي فشعرت في أعماقها بالارتياح عندما مات أخيراً في حادث اصطدام سيارة..

وواجه داني و كولي سنوات قاسية في بداية حياتهما، ففي عشرين عام أصيبت أمهما بأزمة ربو - وعاشت الأسرة محرومة من أسباب الرفاهية، وتعاني من فترات البطالة التي يتعرض لها داني الذي لم يكن أجره يكاد يكفي أفراد الأسرة، ومع ذلك رفضت الأم أن يترك المدرسة.. فما يكاد الجرس يدق ايذاناً بانتهاء اليوم الدراسي حتى يسارع داني الى العمل، بينما تتوجه كولي لرعاية أمها ولم يكن أمامه متسع من الوقت حتى يتمتع بالرحلات أو بعقد الصداقات ولم يكن يفكر في هذا كثيراً. أما كولي فكان عليها أن تنجز كل شؤون البيت.. بالاضافة الى تمريض أمها. وقطعت كولي تفكير داني عندما سألته:

«لماذا لم تذكر أمي الخالة فيلهلمينا؟»

هز داني كتفيه، وقال:

«لا أعرف، ولكنني سعيد أن لها خالة».

«ألم تشعر بالخوف، عندما فكّرت في الحضور الى هنا، وتقديم نفسك الى انسانة غريبة عنا تماماً.. لا تعرف بوجودنا حتى يوم كتبت لها اول رسالة، تخبرها فيها أن أمنا ماتت؟»

كانت كولي لا تميل الى الاختلاط بالناس، وتعزف عن مقابلة الغرباء، فقد كانت تشعر بالخجل، وبالعزلة، وكان هدوءها يدفع الناس الى نسيان وجودها، مما زاد في تحفظها. وأنها لتتذكر جيداً ما حدث. فبعد أسبوع من وفاة أمها، كانت تساعد أخاها على اعادة ترتيب صندوق ثياب أمها، فاذا باضطراب غريب يعتريه عندما عثر على رسالة تحت مجموعة من الصور، فبعث بها الى هذه القريبة المجهولة، وهو يصلي ألا تكون قد ماتت.. وبعد مضي أسبوع جاء الرد، فحمله داني الى المطعم، حيث تعمل كولي كمضيفة وأخبرها بأن تقدم استقالتها من وظيفتها! كم كان يشعر بكراهية لعملها في المطعم، نظراً لما تتعرض له من عبث الزبائن، انه لم يحبذ أبداً فكرة قيام كولي بخدمة الناس الذين لا يستحقون خدمتها، وتعمقت لديه هذه المشاعر، عندما رأى كارل يحاول

مغازلتها!

... وها هما الآن في طريقهما، والسماء تطلق فرقعة أخرى من الرعد. فزعت كولي فشخصت ببصرها نحو أخيها الذي تشبثت أصابعه بعجلة القيادة، وكأنه يضع ثقته في اصرار، على مواصلة الرحلة، وأخيراً قال:

«يجب أن ننسى كل شيء، تركناه وراءنا. هذه هي الفرصة التي يمكن أن نبدأ فيها حياة جديدة، ونصنع شيئاً لنفسينا بدون أن نجد أحداً يثبط من عزيمتنا».

أجابت كولي وهي تحملق في وجه أخيها

«ولكن كان في وسعنا أن نحقق ذلك في سانت أنطوان! لو التحقت بعمل يمكن أن يوفر لنا مزيداً من المال، ويساعدنا على استئجار شقة فخمة. وفي وقت لاحق كان يمكنني أن أحصل على وظيفة أفضل، وأنت لديك العديد من الأصدقاء هناك».

قال بعنف:

«لم أحتمل العمل في هذا المكان، أن مجرد التفكير في زواجك من واحد من هؤلاء الأصدقاء يثير تقززي، فعندما تفكرين في الزواج لا بد أن يقع اختيارك على واحد من الأشخاص ذوي المكانة، يوفر لك منزلاً، فخماً، وملابس فاخرة - يجب أن يكون شخصاً مهذباً وقوراً لا يشبه كارل بأية حال!»

واهتز جسم كولي عندما تذكرت الموقف الكريه الذي حدث في تلك الليلة، فقد أخبرها كارل أن داني سيتأخر، ولذلك سوف يرافقها الى بيتها، وحاولت أن تكون مهذبة معه لأنه صديق أخيها، وما زالت تتذكر عينيه تتفحصانها في صمت ثم تضرّج وجهها بلون الدم عندما انزلقت ذراعه حول ظهرها، وجذبها نحوه، وقد حاولت أن تدفعه عنها. فأطلق ضحكة، وأجبر وجهها على أن يقترب من وجهه.. وأفزعتها الرغبة العارمة التي كانت تعربد على ملامحه.. لكنها كانت عاجزة أمام قوته البهيمية.. ولم ينقذها الا وصول داني الذي أمره بلهجة حازمة بالانصراف ورحل كارل وهو يحمل لها بغضه!

وأفاقت كولي من ذكرياتها على صوت الأمطار تهطل بشدة، وراحت

تراقب بهدوء أضواء الكشافات الأمامية للسيارة التي كشفت عن مفترق طريق آخر تكسوه المياه والتي تصاعدت عالية امام اندفاع السيارة، وشعرت بشقيقها يحاول أن يخرج من اتجاهها، وكانت اللافتة تشير الى أن المياه بالغة العمق، فصاحت:

«داني، ان المياه عميقة، وسنفشل في اجتيازها».

فبدا وجهه شاحباً شحوب الموت وهو يبذل جهده ليجتاز المياه... وما كادت السيارة تصل الى الجانب الآخر من الطريق حتى توقف المحرك عن الدوران... فتلاحقت أنفاس كولي والتفتت الى أخيها بنظرات فزعة، وراحت تراقبه في يأس وهو يحاول أن يبعث الحياة في المحرك ولكن بدون جدوى، وكرر داني المحاولة ولكن المحرك أصرّ على ألا يدور برغم توسلاته ومحاولاته. وتطلّع الى كولي وتمتم قائلاً:

«آسف يا كولي، علينا أن نترك السيارة. دعيني أخرج من الباب المجاور لي أولاً».

غادر داني السيارة، ودار حولها تحت المطر المنهمر، حتى اقترب من الباب المجاور لمقعد كولي ومد ذراعه لمساعدتها على الخروج، ولكنها اعترضت قائلة:

«أستطيع أن أسير».

ولكن داني حملها على ذراعيه، حتى عبر بها مجرى الماء... وعندما وقفت، قالت له:

«اني بخير يا داني... وأستطيع أن أتدبر أمري».

ابتسم مزهواً بها قبل أن يبحث بعينيه عن المدينة التي لفتها السحب الداكنة، وتوقف بصره عند حدود باهتة لمكان برزت منه صخرة فأشار اليها وقال:

«هل تشاهدين هذه البقعة التي تبرز فيها الصخور عالية؟ أريد منك أن تتوجهي الى هناك لتحتمي بها وتنتظريني. شاهدت درباً على الجانب الآخر قد يقودني الى أحد البيوت فأطلب من أهله المساعدة صاحت كولي:

«لا يا داني دعني أذهب معك... انني لست طفلة».

قال لها:

«ليس هناك داع لذهابنا سوياً. سأعود اليك بأسرع ما يمكن».

ولم يتح لها أية فرصة لمعارضته، ولكنه غاص على الفور في المياه التي تغطي مفترق الطريق وراقبته، وهو يسبح في المياه العميقة حتى وصل الى الضفة الأخرى، ولوح لها بما يدل أنه وصل سالماً. ثم اختفى عن عينيها حيث ابتلعه الظلام الذي كان يكتنف المكان.

ووقفت كولي في سكون تراقب الطريق الخالي، وأرعدت السماء، فدفعتها الى الحركة، وشعرت بالبلل في ثيابها والقشعريرة في أوصالها، وتطلعت الى الطريق، ثم ألقت ببصرها الى نعليها وراحت تخطو خطوات بطيئة وهي تنتزع بجهد قدميها من الأرض الموحلة.

وتوقفت كولي أربع مرات لتمسح الماء عن وجهها وقد راحت أسنانها تصطك من شدة الزمهرير، لكنها راحت تواصل سعيها حتى بلغت قاع الوادي. وكان الطريق المؤدي الى التل ينحدر بميل قليل... وأدركت أن عليها أن تزحف لكي ترتقيه... ولم تستطع أن ترى قمة التل الا على ضوء البرق الذي أضاء السماء، فتنهدت في يأس، وبدأت تأخذ سبيلها.

ولم يسعفها نعلاها على أن ترتكز بقدميها على الأرض الموحلة، لذلك كانت تستعين أحياناً بيديها لترتقي المنحدر زحفاً على ركبتيها وتقطعت أنفاسها وهي تتشبث بأصابعها في الأرض حتى لا ترتد الى الخلف فتعود من حيث بدأت.

وأحست بيد تمسك بذراعها، واليد الأخرى تتأبط ذراعها الأخرى، ووجدت نفسها تقف على قدميها فأطلقت ضحكة خافتة من بين أنفاسها المتقطعة. وامتدت يدها الموحلة لتمسح شعرها وقد صوّرت لها أفكارها ان داني نجح في محاولته وأنه عاد.

وصاحت باكية:

«أوه... داني».

ولكن الكلمات تجمدت في حلقها، عندما رأت أمامها رجلاً طويل القامة

يرتدي قبعة، واستطاعت على ضوء البرق أن ترى في وجهه لحية قصيرة سوداء، وكان يقف جواد أسود اللون وراءه ورأسه يهتز وحوافره تدق الأرض بقوة.

واستجمعت كرولي نفسها، وان بدت متلعثمة وهي تتحدث:

«أخي... ذهب... سيارتنا...»

أجاب الرجل بصوت جاد وعميق:

«رأيت كل شيء...»

ورأته يمتطي جواده، وسألت نفسها «هل سيرحل، ويتركها وحدها؟» ولكنه سار بمحاذاتها حتى توقف الى جانبها، ولما مد ذراعه لها، خافت في بادىء الأمر، ولكنه صاح نافذ الصبر:

«تعالي... لا نستطيع البقاء الليل كله تحت هذا المطر»

وتصورت أنه لن يتوقع أن تمتطي معه الجواد، ولكن التفكير السديد دفعها الى أن تمد يدها الى يده، فوجدت جسمها يرتفع بلا جهد عالياً ليستقر أمامه على الجواد.

وسألته:

«الى أين نحن ذاهبان؟»

ورأته يلف جسمها بمعطفه الواقي من المطر، وكأنه يبغي أن يقيها السيل المنهمر ثم أجاب وهو يضم قوامها النحيل الطفولي الى صدره:

«هناك كوخ على الجانب الآخر من التل... سنذهب اليه»

وحث الرجل جواده على السير، وشعرت كرولي بدفء جسمه يسري في أوصالها بالرغم من القشعريرة التي كانت تهزها وهي في ثيابها المبتلة، وكان قلبها يخفق بقوة كلما فكرت في أن الرجل الغريب يضمها الى صدره، ولكن هذه الدقات ضاعت في أضواء البرق وقرقعة الرعد ووقع الحوافر التي كانت تصاحب سقوط المطر، وبددت كرولي الصمت الذي خيم على رفقتها عندما سألته:

«ماذا... ماذا كنت تفعل الآن... في هذا المكان؟»

أجاب ساخراً:

«كنت أبحث عن الحيوانات المفترسة!»

«ذهب أخي ليبحث عن مساعدة... وسيعود مع أحد ليعينه على اصلاح محرك السيارة»

قال لها:

«لن يعثر على أحد في مثل هذا الطقس. فضلاً عن أنني رأيت السيارة وهي تغرق في المياه، قبل أن أعثر عليك. ان نسبة المياه مرتفعة الآن ولا تسمح بالسفر، وحيثما ذهب أخوك عليه أن يبحث عن ملجأ يأوي اليه كما نفعل نحن»

وأدركت كرولي من نبرة صوت الرجل الغريب أنه على جانب من العلم، فبدأت تتحدث اليه ثانية، لكنها توقفت عن الحديث عندما لاحت ملامح مبنى أمامها، فأوقف جواده أمام كوخ مظلم، وأنزلها حتى استوت واقفة، وهبط هو بدوره ووقف الى جوارها، ليغطي رأسها بمعطفه، ورافقها حتى الباب ودفعه بكتفه فانفرج بصرير عال وتابعت خطواته وهي تحملق حولها بدون أن ترى شيئاً، بينما اتجه الغريب الى اليسار حيث أشعل عود ثقاب بدد الظلام قليلاً، وأوقد مصباحاً أرسل أشعة من الضوء الى كل أركان الغرفة، وتابعته ببصرها وهو يحمل المصباح حتى استقر في وسط الغرفة، ثم ركع الغريب أمام المدفأة وأضرم النار في الحطب، وبعد ذلك اتجه الى سرير يقع الى جوار المدفأة وتناول بطانية ودفع بها الى كرولي، وأمرها قائلاً:

«تخلصي من هذه الثياب المبتلة، ولفي جسمك في البطانية»

سألته لاهثة:

«الى أين أنت ذاهب؟»

وتأملته جلياً على ضوء المصباح، فاتسعت عيناها عندما رأت ندبة تشق وجنته اليسرى، فأجفلت، ثم حدقت فيه فوقع بصرها على عينين زرقاوين تحدقان فيها ببرود... وأخيراً أجاب عن سؤالها قائلاً:

«سوف أذهب لأعتني بأمر الجواد»

تمتمت كرولي قائلة:

«آسفة».

وتركها الغريب وغادر الغرفة وصفق الباب وراءه، فتحولت تطلب الدفء من نار المدفأة، وتساءلت:

«لو أن أخاها فشل في العثور على أحد، فانها ستمضي ليلة قاسية وسط العاصفة، أما الآن فهي تستمتع بدفء النار وتستظل بسقف».

خلعت نعليها ليجفا ثم نفضت ثوبها المبلل، ووضعته على ظهر مقعد بجوار النار، وأحست برجفة فضمت البطانية حول جسمها، واقتربت من وهج النار، طلباً للدفء.

وانفرج الباب، ودلف الغريب الى الغرفة ورفع قبعته عن رأسه نافض الصبر، وتخلص من معطفه وقد راقبته كولي وهو يضعها على مشجب معلق في ظهر الباب، ثم اتجه نحو المدفأة وبدأ يحل أزرار قميصه، وعندما تخلص منه رأت منكبيه العريضين وصدره يكسوه شعر أسود غزير، وحينما شاهدت جسمه العاري انتابها الفزع، فشدت البطانية أكثر الى جسمها ولكن بصره انتقل منها الى ثوبها الملقى فوق المقعد... فعاد اليها والشرر يتطاير من عينيه وقال:

«قلت لك اخلعي ثيابك كلها».

اتسعت حدقتاها خوفاً، عندما رأته يقبل عليها، وازدادت فزعاً عندما شاهدت الندبة فوق وجنته، ولكنه توقف... وقال وهو يصرف أسنانه:

«رأيت ملابس داخلية نسائية من قبل... اذا كان ذلك مصدر قلقك».

رأت في عينيه قسوة شديدة، ولم ينتظر أي تعليق من كولي وانما سار الى الجانب البعيد من الغرفة، حاملاً معه المصباح، وثبته فوق مسمار بجوار الخزانة، وقال لها:

«سأرى اذا كان عندي شيء نتناوله، بينما تتخلصين أنت من ثيابك، هل أنت جائعة؟».

وهزت كولي رأسها بالايجاب حين لم تفارق عيناها الرجل الغريب، فقد استمرّ يحدق فيها، ثم قال:

«لن أراقبك وأنت تخلعين ثيابك».

وأدار ظهره لها، وبدأ يفتح أبواب الخزانة، وراحت كولي تبحث عن مكان تتوارى فيه لتنزع بقية ثيابها، بعيداً عن عينيه. وحملت الثوب، وألقت به على الفراش، وأقامت من البطانية ستارة تستطيع أن تخلع ثيابها وراءها، والتقطت أنفاسها عندما سمعت الغريب يضخ الماء، وأدركت أنه مشغول عنها، وأنها في مأمن منه، وبدأت تنزع ملابسها الداخلية، وانتابتها رجفة من عريها ومن برودة الجو، فأسرعت تلف البطانية حول جسمها، وفي ذلك الوقت أقبل عليها قائلاً:

«هناك شاي ساخن، سأحضره عندما تكونين مستعدة».

«سأتناول قليلاً منه».

راح الغريب يتأمل قدميها العاريتين، ثم حدق في أنفها وعينيها، وكانت عيناه كالمرآة تعكسان محاولة كولي اليائسة في اخفاء اضطرابها وأخيراً قالت:

«أنا فتاة في التاسعة عشرة».

وكأنها كانت تريد بذلك أن تدافع عن أنوثتها، فما كان منه إلا أن قال لها:

«حسناً! الطعام سيكون جاهزاً في الحال!»

سألته كولي:

«هل لي أن أساعدك؟ في امكاني أن أطهو».

وشعرت بحرج عندما رفض مساعدتها، وتقدمت الى المائدة، وجلست على المقعد وأخذت تحتسي الشاي في صمت. وبعد مضي دقائق امتدت يده ووضعت أمامها طبقاً مملوءاً بحبات البسلة والبطاطس، فشكرته كولي بدون أن تتطلع اليه ثم تناولت الشوكة لتتناول طعامها. وعندما جلس الغريب على مقعد يقع الى يسارها، قال لها:

«انه ليس طعاماً متقن الطهو تماماً، ولكنه ساخن».

وكانت كولي تصارع بيد لتتناول الطعام، بينما راحت اليد الأخرى تمسك بالبطانية حتى لا تنزلق عن جسمها، وبلغت محاولة تغطية كتفيها بالبطانية خمس عشرة مرة، مما اضطرها أخيراً الى أن تدفع الطبق بعيداً عنها وهي تشعر بتعب

الخلق.

وأخيراً تطلع اليها وسألها:

«هل تحتاجين الى مزيد من الشاي؟»

هزت كرلي رأسها بالنفي، وراقبته وهو يجهز على الطعام الذي كان يملأ طبقه، ثم نهض ليسكب لنفسه فنجاناً من الشاي. وسألته كرلي وهي تشاهد عضلات ذراعه المفتولة العارية وهو يقلب السكر في الفنجان:

«هل توجد مزرعة قريبة من هنا تضم منزلاً يمكن لأختي أن يبلغه؟»

تطلع اليها بنظرة كلها كبرياء، ثم قال:

«منزل آل سمبسون الذي يقع على مسافة ثلاثة أميال من مفترق الطريق. الى أين كنتما ذاهبين؟»

أطرقت كرلي برأسها وتطلعت الى شرخ في المائدة، ثم قالت:

«للاقامة مع خالتنا. أختي داني قال انها تعيش في مكان ليس بعيداً عن هنا، في مزرعة...»

وضع فنجانه، وتحوّل نحوها وهو يسألها:

«ما اسم المزرعة، أو اسم خالتك؟ ربما أعرفها».

شعرت كرلي بنظرته الملتهبة، فتلعثمت وهي تقول:

«اسمها فيلهلمينا فرانجر، وهي تعيش في مزرعة سلاش آس. هل المكان بعيد عن هنا؟»

عندئذ رأت التوتر يكسو وجه الغريب، بعد أن رددت عبارتها أمامه. ثم سألها:

«هل تتوقع وصولكما؟»

«هي دعتنا... هل تعرفها؟»

دفع مقعده الى الوراء، ونهض واقفاً ثم قال:

«أجل. لا بد أنك تشعرين بالبرد. اذهبي وقفي الى جانب النار... وسأقوم بغسل الأطباق».

عادت تسأله باصرار وكأنها لا تبغي أن يتوقف الحديث بينهما، لأنها وجدت

شخصاً يعرف خالتها:

«هل تعيش خالتي قريباً من هنا؟»

«أجل. أنت الآن في مزرعة سلاش آس».

شعرت كرلي بالارتياح فسألته:

«هل تعمل عندها؟»

«كلا. ان أختي وهو زوجها بن يمتلك المزرعة ويمكنك أن تقولي بأنني أعمل عنده».

وكانت الكلمات تخرج من بين أسنانه المطبقة، ولم تشجعها نظرته الجريئة على أن تطرح عليه مزيداً من الأسئلة، وجلست هادئة في مقعدها، وراحت تراقبه يجمع الأطباق. ولم تستطع أن تعرف السبب الحقيقي في رجفتها... هل هو البرد أم الخوف؟

ونهضت من مقعدها واقتربت من المدفأة، وظلت تحدق في الألسنة المشتعلة، وراحت تطرد الاحساس الذي راح يطاردها بأنها هي و داني انتقلا من موقف سيء الى آخر أسوأ. هل غضبه المكتوم الذي شاب صوته؟ أم الى تلك الندبة المرجودة على وجهه؟ لو أن داني كان معها الآن لاختلف الأمر تماماً.

وأحست بحركة وراءها فانتفضت، لكنها لم تلبث أن استعادت هدوءها عندما رأت رفيقها يرفع المخدات عن السرير. وكانت فرصة لأن تتمعن ملامحه الخشنة، وهو يضع المخدات وراءها ثم قال لها:

«ستشعرين بمزيد من الدفء، اذا نمت أمام المدفأة».

سألته كرلي وهي تجلس القرفصاء:

«وفي أي مكان ستنام أنت؟»

راح يقلب النار، ويلقي بعض الحطب في المدفأة، ثم قال:

«على المقعد. اعتدت على النوم في أماكن وعرة».

سألته:

«هل تعرف خالتي جيداً؟ اننا لم نلتق بها من قبل، وأتساءل ما هي طبيعتها؟»

أجاب باقتضاب:

«أحياناً تجديتها عاقلة، وان كانت آراء الناس ليست دائماً صحيحة».

بدأت كولي تقول:

«ولكن...»

قاطعها الغريب قائلاً:

«أظن أن من حقي على الأقل أن أعرف اسم الفتاة التي سأمضي الليلة معها».

تضرّج وجهها بلون الدم، وقالت:

« كولين ماكغوير، ولكن دائي ينادينني كولي ... انني آسفة لسلوكي عندما رأيت ندبتك، أفزعني الرعد من قبل وعندما عثرت عليّ، وبدا الغضب عليك فزعت منك، وأظن أن منظر الندبة فاجأني. منظرها ليس سيئاً بل تبدو كعلامة للبسالة في معركة ضارية.»

وكانت كولي تحاول يائسة أن تعالج الصدع الذي نشأ بينها وبين الغريب، ولكن ابتسامته الساخرة كشفت عن فشل محاولتها. فتطلعت الى يديها وقالت:

«آسفة.. كان الأجدر بي ألا انطق بكلمة».

قال مترددا:

«لا عليك يا كولي، ان مقارنتك تختلف عن الوصف الذي يصفني الناس به..»

همست كولي بجفاف:

«تقصد الندبة؟»

ودّت أن تستعيد الكلمات الى جوفها في اللحظة نفسها، لكنه حدق فيها بهدوء قبل أن ينهض من مقعده ليطفىء نور المصباح. وكانت ألسنة النار المشتعلة في المدفأة تلقي بضوئها على المكان المظلم، وتتراقص على صفحة وجهه. وعندئذ أخذت كولي تقول:

«انني آسفة... أنت تقصد...»

قاطعها بصوت رقيق:

«يجدر بنا أن ننام».

شاب كولي الاضطراب، فتنهدت وراحت تحدق في النار، لكنها رفعت رأسها، وتطلعت الى الرجل الجالس على المقعد، فرأت رأسه يستريح على ظهر المقعد، مغمض العينين، وكأنما أحس بنظراتها ففتح عينيه.. وشخص ببصره نحوها وسألها بدون أن يغيّر من جلسته:

«ما الأمر؟»

سألته كولي:

«انني لا أعرف اسمك؟»

قال وعلى شفتيه ابتسامة شاحبة:

« جيسون، وأصدقائي ينادونني جيس، طابت ليلتك يا كولي»

«طابت ليلتك يا جيس».

٢ ـ اهل المزرعة

رفع الجواد قوائمه عالياً ليتخذ سبيله في هبوط المنحدر، ومع حركة خطواته الرشيقة، أخذت كولي تتمايل فوق ظهره بصحبة جيس. وكان السرج يتألق بحمرة قانية تحت أشعة شمس الصباح، وفي بداية الطريق وقف شخصان بجوار سيارة، يراقبان وصولها، وعرفت كولي أحدهما: أخوها. وحدست أن الشخص الآخر لا بد أن يكون صاحب المزرعة الذي طلب داني مساعدته.

وعلى الرغم من أن كولي شعرت بارتياح لرؤية شقيقها، لكن الخوف الذي أعتراها ليلة الأمس لم ينقشع مع نور الصباح، لأن رفيقها جيسون كان مقلاً في حديثه معها في هذا الصباح. لقد خرج قبلها ليعد سرج الجواد، وعندما عاد قال لها «مرحباً»، ووجدها انتهت من ارتداء ثيابها، واحتساء الشاي الذي أعده لها، أخبرها أن الجواد أصبح على أهبة الاستعداد ليحملها الى أخيها. وكان هذا هو مجمل الحديث الذي دار بينهما خلال الخمس عشرة دقيقة الماضية.

كانت هناك أسئلة عديدة تمنت كولي أن تطرحها عليه، كانت تريد أن تسأله عن خالتها وعن المزرعة وعن كل شيء، ولكن الشفاه المطبقة، والملامح الصارمة أغلقت باب الحديث، ولم تيأس، فلن تلبث أن تعثر على اجوبة عن اسئلتها. غير أن القشعريرة التي كانت تسري في أوصالها اوحت اليها بأن هذه الأجوبة لن تشفي غليلها.

بدا وجه داني جلاًَ وهو يساعد كولي على النزول عن ظهر الجواد. كانت

عيناه قلقتين عندما رأى ثوبها الموحل، وشعرها الأشعث مما يعني بلا شك أنها صادفت متاعب.

وكان يرغب في أن يعرف ذلك. فسألها:

«هل أنت بخير يا كولي؟»

أكدت له قائلة:

«أجل... أنا بخير».

قال داني وكأنه يحاول أن يؤنب نفسه:

«حاولت أن أعود ليلة أمس، لكن المياه كانت مرتفعة، وكدت أجنّ عليك، خائفاً على حياتك من عنف العاصفة. ليتني أخذتك معي».

أجابت كولي وقد اصطبغ وجهها بحمرة الخجل:

«كل شيء على ما يرام، هناك كوخ على الجانب الآخر من التل أمضيت فيه ليلتي».

واتجهت ببصرها الى حيث يقف جيس متحدثاً مع الرجل الآخر، وتبع داني بصرها نحو الرجل الذي عادت معه على ظهر الجواد، ثم قال:

«السيد سيمبسون أخبرني بالمكان، لكنني لم أحتمل فكرة فشلك في العثور عليه».

تطلع داني نحو الرجل ثانية، وسألها:

«هل عاملك معاملة طيبة؟»

أجابت كولي وهي تتجنب نظرات الشك التي تراود أخاها:

«أجل، كنت خائفة في بادىء الأمر لكنه يعمل في مزرعة شقيق زوج الخالة فيلهلمينا. انها لا تملك المزرعة يا داني».

قال داني:

«أعرف ذلك».

وحاول أن يكون صوته متماسكاً حتى لا تشعر كولي بأي خوف قد يبعث الاضطراب في نفسها، ثم أردف يقول:

«حلت ثيابنا من السيارة، فقد بللتها المياه ليلة الأمس».

سألته كرولي:

«هل سيدور محرك السيارة؟».

أجاب داني:

«ليس قبل أن نسحبها من المجرى، ونقوم بفحصها، وحتى ذلك...».

ولم يواصل حديثه، وانما تطلع الى وجه شقيقته، وقرأ القلق في ملامحها. فلو أن الخالة فيلهلمينا لم تستطع أو لم تقبل وجودهما فانه من المتعذر عليهما العودة، ليس معهما نقود، وليست لديهما وسيلة يعودان بها. وحاول داني أن يستجمع شجاعته قائلاً:

«لا تقلقي يا كرولي... ستتحسن الأمور ـ أعدك بذلك».

«ولكن يا داني... ماذا يحدث لو...».

قاطعها الرجل استعداداً للرحيل، «هيا بنا نرحل الآن».

أجاب داني وهو يقود شقيقته الى مكان السيارة حيث يقف الرجلان:

«هيا بنا يا سيد سيمبسون».

وراحت العينان الزرقاوان القاسيتان تدرسان داني باهتمام وهو يقدم كرولي الى صاحب المزرعة، في حين كانت ملامح داني تبدو رقيقة وهو يتطلع الى وجه جيس، فجذبت بصره الندبة التي برزت واضحة بين شعر لحيته. كما أسرته نظرات عينيه النافذتين، ولكن في هذه المرة فشل داني أن يقرأ ما يدور فيهما، اذ أسدل جيس قناعاً كثيفاً فوق وجهه ومد داني يده ليصافح جيس قائلاً:

«أريد أن أشكرك لاهتمامك بشقيقتي».

ومد جيس يده ليصافح داني، وهز رأسه محيياً، ثم أمسك اللجام في قبضة يده قبل أن يمتطي جواده، فبدا وجهه مختفياً وراء حافة قبعته، ثم لوّح بيده مودعاً، وبدأ يستحث جواده ثم يعدو بعيداً عنهم، بينما كانت كرولي تتابعه بنظراتها. وثابت الى رشدها عندما سمعت سيمبسون يقول:

«آه... انه رجل بارد...».

وتطلع داني الى سيمبسون في ريبة لكلماته، وود أن يجد تفسيراً لها، ولكن صاحب المزرعة أردف يقول:

«هيا بنا».

وجلس داني وشقيقته في هدوء في المقعد الأمامي الى جوار سيمبسون، وأغلق باب السيارة كأنه أغلق آخر باب في قصة هروبهما، اذ كان عليهما أن يواجها المجهول، منذ تلك اللحظة.

انطلقت شمس الصباح تتسلل من الستائر المسدلة، وتنهمر على الفتاة النائمة في فراشها، وكانت العصافير في الخارج تغرد تحية لنسيم الصباح، كأنها تدعو كرولي لتستيقظ واستجابت الفتاة، وراحت تنفض النوم العميق عن جفنيها، وعندما فتحت عينيها، انتابتها الدهشة لرؤية المكان الغريب الذي يحيط بها، وزحفت ذكرى الأمس الى ذهنها، فاستوت على السرير ثنت ركبتيها، ولفت ذراعيها حولها وأحست بمرارة أحداث الأمس، وهي تحدق بحزن في الزهور المرتسمة على أوراق الجدران.

تذكرت رحلتها في السيارة التي كانت تسعى حثيثاً الى مزرعة سلاش أس بينما الصمت يخيم على المسافرين الثلاثة. هاجمت الأفكار السوداء عقل كرولي وتساءلت: «هل سلوك داني الغريب أم صمت سيمبسون هو الذي أثار مخاوفها من جديد؛ انها تدرك أن داني عرف شيئاً زعزع ثقته، لكنه لم يخبرها بمزيد من التفاصيل؛

وتوقفت السيارة أمام منزل من طابقين، يتألق بلونه الأبيض وسط أغصان أشجار البلوط شعرت كرولي بالفرح لجمال المنظر، لكن الفرحة تبددت عندما قال سيمبسون:

«آسف أيها الفتى... يبدو أن الرجل المسن يجلس الآن في الشرفة، وهذا ما أملته. لكن عليّ أن أصحبك اليه».

وما كادت كولي تحاول سؤال داني عن فحوى حديث السيد سيمبسون حتى وجدت شقيقها يفتح الباب، ويغادر السيارة. تبعته وهي تحاول أن تزيل البقع عن ثوبها، وتعيد تمشيط شعرها الشعث، ثم أخذت تقضم ظفرها بقلق، عندما تصورت لحظة مقابلتها للشخص الذي أشار اليه سيمبسون بلقب الرجل المسن

كان يجلس على مقعد متحرك. وقدمه سيمبسون باسم بن سافدج، فتطلعت اليه كولي، ووجدته أشبه بالنسر. أحالته السنوات الى نسر طاعن ذي عينين زرقاوين جالتا بدقة من وراء شعر حاجبيه الكثيفين ورأسه المكسو بشعر أبيض وخصلات رمادية، وقد كشفت بشرة وجهه المتهدلة سوء حالته الصحية.

أخذ السيد سيمبسون يشرح له أن داني و كولي ابنا أخت فيلهلمينا، وهما هنا لزيارتها. كما أخبره بما حدث لسيارتهما، وأنهما أمضيا الليلة في مزرعته. وراح بن سافدج يراقبهما في حرص أثناء حديث سيمبسون، ورأى بقع الوحل التي لطخت ثوب كولي وأدرك من منظرها ومنظر أخيها أنهما ليسا ميسوري الحال. فلم يلق بكلمة ترحيب لهما، وأخيراً قال بابتسامة ماكرة:

«كم لمنيت رؤية آخر الأقارب الطفيليين! فيلهلمينا موجودة الآن في حديقة الزهور وستأخذت البكيا غداً...

وأدار مقعده المتحرك. وتركهما، بينما كان تهديده كالسيف المسلط على عنقيهما.

دخلت الخالة ذات الشعر الأبيض غرفة نوم كولي التي كانت قابعة في الفراش تستعيد شريط الأحداث. فقالت لها:

«هل استيقظت الآن يا عزيزتي؟ كان الاعياء بادياً عليك، فقلت لنفسي، دعي الطفلة الصغيرة تتأخر في نومها هذا الصباح»

سألتها كولي بانزعاج وهي تقفز من فراشها:

«أوه... خالتي هل الوقت متأخر حقاً؟ لا أريد أن يظن العم بن أنني أتأخر دائماً في نومي»

وأشارت الخالة على كولي و داني بأن يناديا السيد سافدج بالعم بن برغم أنه لا تربطهما به أية صلة قرابة مباشرة.

قالت فيلهلمينا وهي تضع كومة من الملابس في درج الخزانة:

«ترى ما رأي بن فيكيا؟ ماغي غسلت بعض ملابسك... آسفة يا كولي أن أخبرك بذلك، ولكن مياه النهر شوهت كل شيء... انظري الى هذه التنورة أصبحت سيئة... وهذه البلوزة...»

ورفعت فيلهلمينا تنورة بالية، وبلوزة بيضاء ممزقة قبل أن تضعهما في الأدراج، ثم أردفت تقول:

«يجب أن نقوم بجولة في الحوانيت، لم أفعل ذلك منذ سنوات».

وتوجهت كولي نحو المرآة، التقطت فرشاة، وراحت تمشط شعرها. كانت تشعر بالضيق من ملابسها الرثة. ولكن فيلهلمينا غرانجر سارت حتى وقفت وراءها، وأتاح لها قوامها أن تبدو في المرآة أطول من كولي، فتناولت الفرشاة منها، وبدأت تساعدها بخبرة، وقالت لها:

«شعرك يحتاج الى تصفيفة جميلة، ولو أن أمك روزالي كانت هنا لأشارت بقصه»

هزت كولي رأسها في صمت، فلا السبيل الى أن تخبر الخالة بأنها لم تصفف يوماً شعرها على يد أخصائية. ولكن الخالة أدارت الفتاة نحوها، ورفعت ذقنها بأصابع طليت أظافرها بطلاء أحمر. فشخصت كولي ببصرها اليها، ورأت شفتيها باسمتين، ونظارتها منحنية الاطار فوق عينيها. قالت الخالة:

«اسمعي يا عزيزتي، أعرف أنني سيدة عجوز حمقاء، يغيب عقلي عني أحياناً والسماء لم تمنحنا... أنا وزوجي بن أي أطفال. ولكنها الآن أعطتني أنت و داني سامحيني اذ أبدو عاطفية لأنك، كما ترين أصبحت شيئاً هاماً بالنسبة اليّ».

ابتسمت كولي وترقرقت الدموع من عينيها، ثم قالت:

«أوه خالتي»

وترقرقت الدموع في عيني الخالة أيضاً، ولكنها بذلت جهدها لكي تكفكفها، وأخيراً قالت:

«حسناً.. يجدر بنا أن نتماسك، والا انفجرنا بالبكاء، ويحسن بك أن تسارعي بارتداء ثوبك. لقد أعدت مالي طعام الافطار في الطابق الأول. أسرعي الآن».

ابتسمت الخالة وهي تدفع الفتاة بمرح على الفراش قبل أن تغادر الغرفة عالية الروح، وعندما غاب شبحها، استوت كرولي جالسة على الفراش ثانية وعقدت ذراعيها فوق صدرها، والفرح يكاد يطيّر عقلها، لأنها تحس بأنها مرغوبة! وبسرعة تخلّصت من ملابس النوم وبدأت ترتدي ثيابها.

وضعت كرولي يدها على الدرابزين، وبدأت تهبط درجات السلم، ولم تكد تبلغ الدرجة الأخيرة، حتى انفتح أحد الأبواب المطلة على الصالة وخرج رجل نحيل، أسود الشعر، وتناهي الى سمعها صوت بن سالفدج صادراً من داخل الغرفة وهو يقول:

«وهل أخبرت جيس بأنني أريد تقريراً كاملاً عن غيابه. حان الوقت الذي يجب أن يعرف فيه أنه ليس من حق أحد أن يغيب عن المزرعة مدة ثلاثة أيام بدون أن يستأذنني كما أريد أن أعرف أين قضى هذه المدة، وماذا كان يفعل؟» أجاب وهو يهز رأسه قبل أن يغلق الباب:

«أجل يا سيدي».

وعندما استدار ليواجه كرولي رأت ملامحه جديرة بالاحترام ولاحظت أن وجهه نحيل وشعره أسود وانفرجت شفتاه عن ابتسامة رقيقة عندما وقع بصره عليها، ومد يده محيياً، وهو يقول:

«حسناً.. صباح الخير.. لا بد أنك كرولين، أخبرتنا الخالة بكل شيء عنك».

مدّت يدها له بدورها، وقالت:

«كيف حالك؟»

«أستطيع أن أقول انها نسيت أن تحدثك عني، أنا توني غوردون ابن أخت الرجل الكهل».

تطلعت كرولي نحو الغرفة المغلقة، وتابع توني نظراتها قائلاً:

«انه في حالة طيبة اليوم، أين كنت ذاهبة؟ الى غرفة الطعام؟»

هزت رأسها بالايجاب، فأردف يقول

«سأصحبك. لن أستطيع أن أمكث طويلاً لأنه عليّ الذهاب للبحث عن جيس، والمفروض أن أقابل أخاك - ونقوم بجولة في المزرعة».

وأمسك بذراعها، وقادها عبر الصالة، فسألته

«هل التقى أخي مع السيد سالفدج هذا الصباح؟»

«كان خارجاً من مقابلته، لحظة دخولي الغرفة».

تمتمت قائلة:

«أرجو ألا يكون أخي قد أغضبه».

ضحك توني وقال:

«أعرف خالي بن.. يثور كلما سنحت له الفرصة. وأعتقد أن دورك آت لا ريب في ذلك».

قالت كرولي وقد فارقتها روحها المرحة وهي تدخل الى غرفة الطعام:

«كان من المفروض أن أذهب للتحدث اليه هذا الصباح».

قال توني مداعباً، وهو يسحب مقعداً لتجلس عليه كرولي:

«والمحكوم عليها بالاعدام.. شهيتها مفتوحة لتناول طعام الافطار».

زجرته فيللي التي كانت تجلس الى المائدة، قائلة

«توني، كف عن هذه المضايقة».

«انني أمزح يا خالتي العزيزة».

ولكن المزاح أفسد شهية كرولي، وكانت الخالة تقدم اليها الأطباق قائلة:

«لا تعيري التفاتاً له يا كرولين، أسرع يا توني فان دانيل في انتظارك خارجاً».

لوّح توني بيده مودعاً كولي التي رسمت بصعوبة ابتسامة على شفتيها ترد بها على تحيته. وعندما بدأت تتناول الطعام لم تجد أدنى شهية، فقالت الخالة:

«عزيزتي كولين لم تأكلي شيئاً...»

أجابت كولي معتذرة:

«آسفة.. لا أشعر بأدنى رغبة في الطعام. في أي حال أنا دائماً نحيلة، ولا أستطيع أن أزيد وزني».

رشفت العجوز قهوتها، وقالت:

«ستشعرين بالامتنان لذلك ذات يوم، ولن تنزعجي لنحافتك. أنا متأكدة أن هناك كثيرات من عارضات الأزياء يحسدنك على قوامك».

قالت وهي تحاول أن تضفي على صوتها نبرة مرح لتخفي الجرح الداخلي الذي يؤلمها:

«ولكن العارضات يتمتعن بوجوه جذابة».

قالت الخالة:

«لكنك لست قبيحة كما تتصورين يا كولين، انه مجرد شحوب يمكن علاجه. والآن اذا فرغت من طعامك، فان بنيامين يريد رؤيتك على انفراد في مكتبه».

نهضت الخالة من مقعدها، وراحت تسوّي ثوبها بيديها، فتلألأت الخواتم في أصابعها، ثم أردفت تقول:

«لا تضيقي بمداعبات توني».

نهضت كولي بدورها وهي تقول:

«بالطبع لا، يا خالتي».

وشعرت بساقيها لا تقويان على حملها وهي تسير نحو المكتبة. وسألت نفسها: لماذا تشعر دائماً بالخوف من أي شخص ومن أي شيء؟ داني كان يقف دائماً الى جوارها ليتشلها من المواقف الحرجة. لكنها في هذه المرة لا تجده، وعليها أن تجابه الموقف وحدها. والرجل الجالس على المقعد المتحرك لا ريب سيسخر منها. انه

مريض يرض أمها تماماً. ولا بد أن العم بن يعاني من المشكلة نفسها. أمها كانت لا تحب أن تقوم كولي باجراء أي تعديل في البيت، وتتمسك بما اعتادت عليه... وهذا يفسر سبب غضب العم بن لوجودها هي و داني في البيت، فانهما يشيعان الفوضى في منزله، ولكنها لم تخف من أمها، فلماذا اذن تخاف من بن؟

تألق بريق في عينيها عندما طرقت باب المكتب، وسمعت صوتاً أجش يقول:

«ادخلي... ادخلي...»

خطت الى داخل الغرفة، وكانت الستائر مسدلة فوق النوافذ تحجب ضوء الصباح، بينما الظلام يكسو الجدران، ويشيع الكآبة في المكان تطلعت الى الرجل الأشيب القابع وراء المكتب، وسألته بأدب:

«هل ترغب في أن أضيء النور؟»

زمّ قائلاً:

«ما الأمر؟ ألا تستطيعين الرؤية؟»

«المكان معتم قليلاً».

«من الحماقة استعمال الكهرباء في وضح النهار، انه تبذير للنقود».

اقترحت عليه وهي مترددة:

«أستطيع أن أزيح الستائر جانباً».

«أنت تصرين على ذلك، أليس كذلك؟»

«الشمس تلقي مزيداً من الضوء...»

«حسناً... أزيحي الستائر... اذا كان هذا يسرك».

وسارت كولي نحو النافذة وأزاحت الستائر جانباً فسمحت لضوء الشمس أن يقتحم الغرفة. فقال ساخراً:

«هل طاب لك الأمر؟ تعالي هنا، واجلسي، والآن أستطيع أن أراك جيداً».

امتثلت لأمره، وجلست بهدوء، وأحست بنظراته تحدقان فيها، وشعرت أنها تحيي روحه المرحة الساخرة التي جعلت منه السائل، ومنحتها قليلاً من الشجاعة،

وأخيراً قال:

«ألا تصنعين شيئاً لشعرك؟ يبدو كأنك نسيت تمشيطه؟ والآن دعينا نناقش العمل الذي ستقومين به. اعرفي انه لا مكان لانسان يعيش هنا بلا عمل. كل شخص عليه أن يجري على رزقه أو أن يرحل... وأنت ما العمل الذي تصلحين له؟»

أجابت كولي:

«أستطيع أن أطهو وأنظف البيت، وأقوم بالطبع على الآلة الكاتبة».

«لدينا مديرة منزل، والبيت ليس كبيراً ليحتاج الى اثنين، كما أنني لا أحتاج الى عاملة على الآلة الكاتبة. ألا تفعلين شيئاً آخر؟»

«قمت بتمريض أمي عدة سنوات».

زمجر وهو يجاهد ليرفع جسمه عن مقعده المتحرك، وقال:

«لست في حاجة الى ممرضة».

قالت كولي متلعثمة وقد ارتسمت خطوط القلق على جبينها:

«انني... انني لا أقصد».

صاح بن وراح يمسح شعره براحته:

«اخرجي... اخرجي من هنا!»

بدأت الدموع تترقرق في عيني كولي، وقالت:

«آسفة. أنا لا أحسن مزاولة العديد من الأعمال».

«سأجد لك عملاً تقومين به. والآن اخرجي من هنا. يكفيني ما سمعته من أخيك. على أية حال، أن خالتك ستحتاج اليك بطريقة أو بأخرى».

فنهضت كولي من فوق المقعد والخدر يسري في أوصالها، ومن خلال الدموع التي ترقرقت في عينيها رأت بن يتشبث بعصبية في مقعده المتحرك... لقد حطمت كل شيء، كان عليها أن تقدر مدى حساسية الكهل المسكين تجاه عجزه، وكان الأحرى بها أن تكون لبقة معه... وقد ارتكبت خطأين منذ وصولها: أولهما مع جيسون ـ والثاني مع العم بن. متى تتعلم كيف تغلق فمها؟

وعندما بلغت كولي باب المكتب، التفتت وراءها واتجهت نحو العم بن

وهي تبحث عن كلمات تعالج بها خطأها ولكن صورة التجهم التي رأتها على وجهه جعلت الكلمات تتوقف في حلقها، فأغلقت الباب وراءها.

وبعد ساعة تجولت في البساتين الظليلة حيث كانت خالتها منهمكة في عملها بين الزهور، وكانت الخالة ترتدي قفازاً وتمسك مقصاً، وتضع قبعة من القش لتقي وجهها من أشعة الشمس، فاقتربت كولي منها ببطء، وحاولت أن تصوغ الكلمات لتشرح لها فشلها في اللقاء الذي تم بينها وبين العم بن... سألتها خالتها:

«عزيزتي كولين، أين أمضيت كل هذا الوقت؟ ألا تحبين الورود؟ ان لها أشكالاً بديعة لا تكف عن إدخال السرور الى قلبي... البراعم هشة ورقيقة، والزهور أينعت وتفتحت، والعطر يعبق المكان برائحته الزكية... »

وانتظرت الخالة أن تلقى تأييداً لكلامها من كولي التي كانت مشغولة عنها بأسباب القلق التي أثارها حوارها مع العم بن. فسألتها الخالة:

«ما الحكاية يا عزيزتي؟ ألم ينجح حديثك مع بنيامين؟»

هزت كولي رأسها في وجوم، فنزعت الخالة القفاز من يديها، ووضعت راحتها فوق كتف الفتاة، وسارت بها نحو مقعد يقع تحت شجرة بلوط وارفة الظلال، وقالت لها:

«اجلسي... وأخبريني بكل ما حدث».

بدأت كولي تسرد ما حدث، وكان حديثها متعثراً، غير مترابط وانتهى بها الأمر الى أن انفجرت باكية، فحاولت فيللي أن تهدىء من روعها، وقالت لها:

«لا... مهلاً... كان الأجدر أن أشير الى مدى حساسية العم بن لمرضه. أنا واثقة أنه سيعتذر لك فيما بعد عما بدر منه، فهو يحب أن يصور لنفسه أنه لا يعتمد على أحد... ويوم يجد نفسه عاجزاً عن القيام بأمر ما تنتابه ثورة عارمة. انه يعرف أنك لست من النوع الذي يعنيه بثورته».

أخذت كولي تبكي وهي تلوي أصابعها في عصبية، وأخيراً قالت:

«أرجو ذلك يا خالتي... لقد حاولت أن أعتذر له».

«من الأفضل ألا تقولي شيئاً وتظاهري بأن الأمور سارت سيراً حسناً وانني ثورته».

«لكن الذي حدث أنه غضب».

«اثارة الموضوع ثانية لن يساعد على تحسين العلاقة بينك وبين بنيامين هل أنت مصرة على إثارته؟»

«لا...»

وبدأت كولي تمسح دموعها، وراحت تحاول الابتسام في وجه خالتها التي قالت:

«عندي فكرة، بنيامين يحب تناول الشاي قبل العشاء. لماذا لا تذهبين الى المطبخ، وتطلبين من ماغي اعداده ثم احمليه له... كنوع من مبادرة السلام».

«حسناً».

نهضت عن المقعد بينما كانت الخالة تلقي تعلياتها:

«ضعي قطعة قماش مبللة بالماء البارد فوق عينيك، والا أدرك بنيامين من عينيك الحمراوين، وجفنيك المبتلين أنك كنت تبكين ويحس أنك مذنبة».

«تحت أمرك يا خالتي».

وتوجهت كولي نحو البيت، ودلفت من الباب الخلفي الى المطبخ كانت ماغي تنظف بعض الخضراوات، وبسرعة وقفت الى جوارها وقالت لها:

«خالتي اقترحت أن كان في وسعك اعداد ابريق الشاي، لأقدمه للعم بن».

أجابت المرأة بخشونة:

«الابريق على الموقد، والصينية على المنضدة، والشاي سيكون معداً بعد قليل».

قالت كولي وهي تشعر بخوف دفين من مدبرة المنزل:

«سأحمله اليه بعد أن أغسل وجهي».

قامت كولي بوضع كمادات من الماء البارد على عينيها حتى اختفى الاحمرار منها، وكانت وجنتاها شاحبتين، فقامت بقرصهما حتى تضرجتا بالحيوية وشعرت بتحسن واضح، فأسرعت عائدة الى المطبخ، ووجدت ابريق الشاي فوق الصينية

مع الفنجان والسكرية.

قالت ماغي وهي تحمل الصينية:

«لماذا كنت ترغبين في أن أعود اليك وأساعدك في الطهو، فانني على استعداد لذلك».

قالت ماغي:

«انني أقوم بالطهو منذ ثمانية عشر عاماً... وأعتقد انني أستطيع مواصلة العمل لمدة ثمانية أعوام أخرى».

تركتها كولي بدون أن تتفوه بكلمة، وشعرت بسعادة وهي تسعى نحو مكتب العم بن... على الأقل تريد أن يعرف بن انها لا تكن أية مشاعر عدوانية نحوه. ولكن على بعد خطوات قليلة من الباب المفتوح، تناهى الى سمعها صوت أحدهم... وعرفت أنه جيس يتحدث الى بن قائلاً:

«فقدنا أربعة رؤوس من القطيع في الفيضان».

قال بن باضطراب:

«كان يجب أن تبعث أحد العمال للبحث عنها...»

قال جيس بصوت يشوب نبرته العداء:

«كنت في حاجة الى الهواء...»

فقال الكهل بسخرية:

«أوه... حقاً... هل تعلمت ذلك؟ كنت أظن أنه من الأفضل أن تترك العمل نهائياً».

قال جيس بصوت عال، وهو يؤكد على مخارج كلماته:

«يجب أن تعرف من الآن فصاعداً، أنني لن أترك عملي، وسأبقى هنا طالما بقيت برصة واحدة من أرض سالفدج، ويجب أن تتقبل هذه الحقيقة».

ودفع الفضول كولي الى أن تسير حتى اقتربت من الباب لترى الرجل العريض المنكبين يميل بجسمه على المكتب ليواجه الجالس على المقعد المتحرك، وكانت المرارة والكراهية مرسومتين على وجهيهما... وفجأة صاح بن:

«يجب أن ترحل! لن يحصل أي قاتل على حبة تراب من هذه المزرعة».

«الآن... أتى بي خارج المزرعة».

وفزعت كولي عندما رأت وجه بن يكسوه الغضب لسماعه كلمات جيس الذي استطرد قائلاً بسخرية:

«إنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً، فضلاً عن انك لن تستطيع اذا كان في وسعك أن تفعل، لأنك تحتاج الى توني الغالي سيدمر في أسبوع واحد كل شيء بنيته طوال حياتك.. أنت تحتاج الي».

وحرّك بن مقعده المتحرك في ثورة غضبه، فوقع بصره على كولي فأجفل، واستدار نحوها، فقالت كولي:

«أحضرت لك الشاي يا عمي...»

وخيّم الصمت على المكان الى أن قطعه بن قائلاً:

«أحضريه يا فتاة».

هرعت كولي ودلفت الى الغرفة، فارتج الفنجان على الصينية وكان كل فكرها في سياق رهيب. هل سيخبر جيس العم بن أنها أمضت الليلة في كوخه اثناء العاصفة؟ ماذا ستقول اذا حاول العم أن يقدم جيس لها؟ ولكن يبدو أن بن لم تكن لديه أية نية للكلام.

وضعت الصينية على المكتب، فقال لها:

«شكراً لك.. يمكنك أن تذهبي».

هزت رأسها واستدارت وتطلعت الى جيس.. كان ما زال غير حليق الذقن... وان كانت لحيته قد أوشكت أن تغطي ذقنه.. ورأت عينيه الزرقاوين الباردتين تتحديانها، فترددت هنيهة أمامه، وهي تشعر أنها منجذبة اليه بالرغم من خوفها منه. تماماً كما حدث في تلك الليلة التي أمضتها معه، وبذلت جهدها لتثوب الى رشدها وتفرّ هاربة من الغرفة...

٣ ـ زهرة أم اميرة

وقفت كولي في غرفة نومها وراحت تتطلع من النافذة، وهي تقضم أظافرها بلا وعي. لقد ارتقت درجات السلم وثباً لتستبدل ثوبها، لأن الخالة أخبرتها بأنهم اعتادوا منذ سنوات طويلة أن يرتدي الجميع ثياباً أنيقة عندما يتناولون طعام العشاء. صحيح ان المرء يفضل الجلوس الى المائدة في ثيابه المنزلية، لكن صورته ستكون مزرية وهي تختلف تماماً عنها لو ارتدى ثياباً أنيقة تجعل منه انساناً جديداً، وتبعث جواً منعشاً، يدفعهم الى الاقبال على الطعام. ووجدت كولي في حديث خالتها الرأي السديد، كما أن مثل هذا الجو سوف يبدد المشاعر المضطربة التي تحس بها.

كانت كولي ترى في هذا البيت، الحلم الذي راودها طويلاً. فحجراته واسعة ومريحة، والخالة جذابة عطوف، حتى الكهل بن وجدته شخصية محبوبة بالرغم من خشونته. هذا ما بدا منه ظاهرياً. أما في أعماقه فكانت تلوح لها أشياء غريبة لا تعرف كنهها أشياء قد تدمر احساسها بالامان وفكرت في جيس، ورأت أنه الشخص الذي لديه المفتاح لكل الخفايا، انه الرجل الذي أنقذها من العاصفة، والانسان الذي جعلها تشعر بالأمان والحماية بالرغم من الخوف الذي بثه في أعماقها

تطلعت كولي الى نقوش الزهور المتناثرة في ثوبها، وشكرت مالي لأنها أزالت بقع الطين التي لوثته. صحيح أنه أفضل ثيابها، ولكن كولي تدرك تماماً أنه لا يقارن بثياب الخالة الفاخرة. انه ثوب رخيص مع أنه يختلف عن باقي ملابسها لأنها اشترته بنقودها، ولم يكن هدية من أحد.

وألقت ببصرها عبر النافذة.. وانتابتها الدهشة عندما رأت شقيقها يعبر بوابة الحديقة، فاندفعت تغادر غرفتها، وتهبط درجات السلم بسرعة وتتوجه الى الباب. في تلك اللحظة دخل أخوها، فصاحت فرحة:

« داني... كنت أترقب قدومك».

ألقى بذراعه على كتفها وسارا تجاه السلم وهو يقول:

«ماذا كنت تفعلين طوال اليوم؟»

تساءلت كولي بدورها قائلة:

«وأنت ماذا كنت تفعل طوال اليوم؟ ذهبت قبل أن أستيقظ، وافتقدت وجودك على مائدة الغداء».

سأل مبتسماً:

«ألا يمكنك أن تخمني أين كنت؟ شمّي اذن!»

صاحت وهي تستنشق نفساً عميقاً من رائحة تنبعث من كتفه:

«أف...!»

قال وهو يدفعها أمامه لتجتاز الدرجة الأخيرة من السلم:

«عهدوا اليّ بتنظيف حظائر الماشية!»

ضحكت كولي وقالت:

«مسكين يا داني».

وراحت تربت يده في سعادة، وهما يجتازان الصالة في طريقهما الى غرفته، وقالت له:

«شكراً للسماء... اسمع، من المفروض أن ترتدي ثياباً أنيقة عندما تتناول طعام العشاء، والا رفضت الخالة أن تسمح لك بالجلوس الى المائدة. هل تعرف ماذا تعني

قواعد ارتداء الثياب لتناول طعام العشاء؟»

قال وهو يحل أزرار قميصه:

«أجل... تولي أخبرني بذلك، والآن أخبريني ماذا كنت تفعلين؟»

«لا شيء».

اتسعت عيناه في دهشة وهو يقول:

«لا شيء... هل تحدثت الى الكهل؟»

جلست كولي على الفراش، وقالت:

«أجل».

ولكن أفكارها لم تكترث بالمقابلة بقدر ما كانت تدور حول الحديث الذي دار بين بن و جيس وعاد داني يسألها:

«وكيف سارت المقابلة؟»

«على خير ما يرام، فيما عدا... أنه لا يعرف ماذا هو يفعل بي؟»

راح داني يرفع كمّيْ قميصه الى ما فوق مرفقيه، ويعمل على تسويتهما وابتسم قائلاً:

«لا تقلقي ابداً، أخبرته أنني سأتولى دفع نفقات اقامتك هنا، فأكد لي أنه لا مانع عنده».

ابتسمت كولي بدورها، وعادت تسأله:

«ما رأيك فيه يا داني؟»

تمهل داني قليلاً قبل ان يجيب قائلاً:

«أحبه... حقاً أحبه، أنه خشن، ويقول كل ما يعن له... ومع ذلك فانني أحبه».

«وأنا كذلك».

«عندما كنت أنظف حظيرة الماشية، فكرت فيه وكيف أنه لا يستطيع أن يأتي ليتأكد من أنني أقوم بوظيفتي خير قيام. لا بد أن يكون قاسياً والا فشلت أعماله... انني أشعر بالأسف له، ولا يمكنك الا أن تحس بالشفقة نحو رجل مثله، حتى لو كان عاجزاً. لقد قلت ذلك لتولي ولكنه انفجر ضاحكاً، ولا أظنه يفهم

ما أقصد...»

وفي هذه اللحظة، تذكرت كولي الكلمات التي قالها جيس للرجل الكهل:ان توني الغالي سيدمر في أسبوع كل شيء صنعته طوال عمرك.

وجلست كولي صامتة على الفراش والحيرة تجتاحها... وتتساءل هل تخبر داني بالأشياء التي سمعتها أم تظل؟ ولكن أخاها جذبها من يدها لتنهض عن الفراش، وقال لها:

«من الأفضل أن تغادري الغرفة... سأستحم وأبدل ثيابي وحديثك يحرقني، سألتقي بك في الطابق الأرضي».

قالت:

«أمرك».

وغادرت الغرفة في تراخ، بعد أن تحدوها الرغبة لأن تفضي اليه بما سمعته، وفي ذلك الوقت وصل الى سمعها صوت خالتها آتياً من الطابق الأول، وهي تدعوها:

« كولين... هل أنت هناك؟ هل يمكنك مساعدة ماغي في اعداد المائدة، لم أحضر الزهور بعد، والا كنت عاونتها. ثم أعرف أن موعد طعام العشاء قد حان».

أجابت كولي:

«لا مانع لدي...»

وأخذت تهبط الدرجات قفزاً، ولما بلغت آخر السلم، سألتها الخالة:

«هل أخوك مستعد الآن؟»

هزت كولي رأسها بالنفي، فضغطت الخالة على شفتيها بعصبية واستطردت تقول:

«حسناً.. الرجال لا يستغرقون وقتاً طويلاً في ارتداء ملابسهم».

ودفعت كولي امامها الى غرفة الطعام، وهي تقول:

«القضيات في خزانة الصيني، أما باقي الأدوات فهي عند ماغي في المطبخ».

وتطلعت كولي فوجدت ستة أطباق فوق المفرش الذي يكسو المائدة

فتساءلت:

«هل ستتناول ماغي طعام العشاء معنا؟»

«أوه... كلا يا عزيزتي. انها تقول أن الصعود والهبوط يفسد جهازها الهضمي، ولذلك ستتناول طعامها فيما بعد».

سألتها كولي:

«اذن لمن يكون الطبق السادس؟»

«أوه... ألم أخبرك، حفيد بنيامين سيأتي الليلة لتناول طعام العشاء، والآن أسرعي باعداد المائدة، لأن الرجال سيأتون بعد لحظات».

قامت كولي بوضع القضيات على المائدة، وملأت الأكواب بالماء المثلج وأحضرت علب الملح والفلفل، والزبد والسكر من المطبخ، ودخل داني الغرفة عندما بدأت الخالة وضع اللمسات الأخيرة للمائدة. فسألها داني:

«هل الطعام جاهز؟»

أجابت الخالة وهي تتراجع وتتأمل المائدة:

«سنجلس حالاً... داني، كم أنت أنيق!»

فرحت كولي للثناء الذي أطرت به شقيقها، وكان قد ارتدى قميصاً أبيض، وسروالاً رمادي اللون، فبدا جذاباً وخاصة بوجهه المتورد والبلل الذي اختلط بشعره، فجأة ترددت همهمة أصوات في الردهة فقالت الخالة وهي تقوم بتثبيت صفوف العقود فوق صدرها:

«لا بد أن الرجال قادمون».

فالتفتت كولي و داني الى الباب، فرأيا بن قادماً على مقعده المتحرك وهو يقول:

«بالتأكيد، الطعام جاهز الآن...»

أسرعت الخالة تقود المقعد المتحرك الذي يجلس عليه الرجل العجوز حتى يحتل رأس المائدة، ثم أجابت قائلة:

«بالطبع يا بنيامين، أنت تعرف أننا عادة نتناول طعامنا في مثل هذا الوقت».

وتبع توني الرجل الكهل الى غرفة الطعام، وهو يبتسم في وجه داني ويربت على ظهره، ويسأله:

«كيف حالك الآن؟ هل ما زالت عضلاتك مشدودة؟»

ابتسم داني وهو يتطلع الى الشخص القادم الذي وقف متمهلاً عند الباب، ثم استدار برأسه نحو توني ليقول له:

«الى حد ما... ذلك أنني على ما أظن لم أتعود العمل بعد».

هز توني رأسه، وقال بسخرية:

«ستعتاد على العمل...»

ثم استدار الى الباب، وتابع كلامه:

«لأأظنك يا جيس قد التقيت بضيوفنا الجدد؟»

وقفت كولي تحدق في الرجل الذي وقف عند مدخل الباب، وقد أزال لحيته فكشف عن قوة عظمتي وجنتيه، وبرزت حدة خط فكه، ولم تكن ندبته واضحة في وجنته كوضوحها أول مرة رأتها عندما كان شعره طويلاً، ولم تفقد عيناه بريقهما المتلألئ، وبدا أكثر شباباً... في حوالي الثلاثين من عمره، وكانت ملابسه مختلفة تماماً، فقد ارتدى سروالاً فضفاضاً أزرق اللون، مع قميص أزرق قاتح.

كان باختصار شخصاً متميزاً أرستقراطياً. وسار الى الأمام، وسمعت كولي وهي في شبه غيبوبة صوت خالتها تقوم بمهمة التعارف. قالت لجيس:

«أقدم لك أولاً ابنة أختي كولين، وشقيقها داني. وأقدم لكما جيسون سافدج، حفيد العم بن».

مد جيس يده لتحية داني، وقال:

«انني مقدر التجربة القاسية التي خضتها لمواجهة الفيضان».

هز داني رأسه في حيرة، ثم صافح يد جيسون، وأجاب:

«كنا محظوظين اذ استطعنا أن نبلغ مزرعة سيمبسون».

فاستدار جيس نحو كولي قائلاً:

«انني سعيد بلقائك».

وضعت كولي يدها في يده الفاتنة، وصافحته، بدون أن تقوى على الكلام، وانما ابتلعت ريقها، واقتصرت على هز رأسها. ثم تناهى صوت ماغي الى أسماع الجميع وهي واقفة عند باب المطبخ تسأل:

«هل ترغبون في تناول الطعام الآن؟»

قال بن مزمجراً:

«طبعاً، أنا ما جئت لأجلس هنا... بحثاً عن مكان أفضل».

قالت الخالة:

«هيا يا ماغي... اننا مستعدون لتناول الطعام، وتذكر يا بنيامين ان العراك على المائدة يفسد الجهاز الهضمي».

سحب جيس المقعد الأيسر المجاور لمقعد جده، لتجلس عليه كولي، قبل أن يتوجه ليجلس الى يسار فيلهلمينا، وتطلعت كولي بتردد الى أخيها الذي جلس الى جوارها، لكنه قطب جبينه وأشار اليها خفية بأن تلتزم الصمت، وراحت تراقب الأطباق تمر من العم بن الى توني ثم جيس فالخالة، وحاولت أن تبدو غير مبالية مثلما يفعل الآخرون. وأن تتخذ قناعاً أشبه بالقناع الذي يرتديه جيس لكنها فشلت في محاولتها. فقد كانت تقفز في مقعدها كلما تفوه بن بعبارة، وهي تتوقع في كل مرة أن يبدأ الجدال أو يسود الجو توتر اذا التزم الجميع الصمت.

سألها توني وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة:

«ماذا فعلت اليوم يا كولي؟»

تلعثمت كولي، وكادت الشوكة تسقط من يدها، وقد اصطبغ وجهها بحمرة الخجل، وهي تقول:

«ساعدت الخالة في الحديقة».

سألها وهو يرمق خاله بن بطرف عينه:

«وماذا قرر العم بن أن يعهد اليك من عمل هناك؟»

أجابت كولي عيني توني وأطرقت برأسها وهي تنظر لاهثة الأنفاس ما

سوف يقول العم بن. انها لم تفلح بأي شيء الى توني حول فشل الحوار الذي دار بينها وبين العم بن.

أجاب بن مقطباً جبينه:

«انها غير جديرة بالعمل في أي شيء سوى الزينة. والطريقة التي تبدو فيها الآن أكبر دليل على ذلك. عليك يا فيلهلمينا أن تفعلي شيئاً لشعرها انه أشعث دائماً».

قال توني مداعباً:

«مثل شعرك تماماً يا خالي!»

حدق بن في ابن أخته توني وقال له:

«لا تكن وقحاً».

ثم استدار بوجهه نحو الخالة وراح يلوح لها بالشوكة في الهواء وأردف يقول:

«اشتري لها ثياباً أنيقة. وفي المرة المقبلة يجب أن تأتي الى المائدة في ملابس مناسبة حتى لا يبدو منظرها كالمتشردة».

بان الخجل والاذلال على وجه كرولي فغضت بصرها حتى لا يلتقي بنظرات جيسون الذي أخذ يحدق فيها، ثم تطلعت بسرعة الى أخيها، ورجدت وجهه ازداد احمراراً، وأطبق شفتيه على غضبه. اذ كان هذا المكان بالنسبة اليهما هو البيت الذي سوف يأويان اليه بأي ثمن، حتى ولو على حساب كبريائهما.

زجرته الخالة قائلة:

« بنيامين، هل من الضروري أن تكون فظاً للغاية؟ أحياناً تفتقر الى اللباقة في الحديث. أعددت العدة لاصطحاب كرولي في جولة تقوم بها غداً على الحوانيت. أغلب ثيابها أفسدتها مياه الفيضان وبالطبع كان لا بد أن تبدو ملابسها في حالة سيئة للغاية».

قال جيس وهو يبعث بابتسامة الى كرولي لكي تتمسك بأهداب الثقة:

«أنا متأكد أن كرولي سوف تستمتع بالجولة».

فقالت الخالة وهي تمط شفتيها وقد رسمت عليها ابتسامة تبعث الأمل والثقة

في قلب كرولي:

«لا شك في ذلك. كل الفتيات يستمتعن بالتجول بين الحوانيت».

قالت كرولين والكلمات تتعثر على شفتيها:

«أجل... ستكون جولة ممتعة تدخل السرور الى نفسي».

قال بن:

«كلام فارغ. ان النساء يحببن تبديد النقود».

ومدّ يده، وأراحها على ذراع كرولي وأردف يقول:

«ولكنك يجب أن تكوني حريصة على اختيار ثوب فاخر مناسب لطعام العشاء في الغد. اتوقع أن أرى فتاة جذابة تجلس الى جواري».

ولمست كلماته أوتار قلبها، وأحست به وكأنه يقدم اعتذاراً عن خشونته معها، وشعرت بأخيها قد استراح قليلاً.

وصاح بن قائلاً:

« ماغي...»

وعندما أطلت برأسها من وراء الباب، أردف يقول:

«سنتناول القهوة في الشرفة».

وعندما تراجعت المقاعد الى الوراء، استدار نحو كرولي وقال:

«حسناً... هل أنت مستعدة لمساعدتي على التوجه الى الشرفة أم لا؟»

هزت كرولي بالايجاب، وتقدمت لتقف وراء المقعد المتحرك، وتدفعه الى الشرفة، وبينما كانت تأخذ سبيلها، سمعت خالتها تتحدث بصوت خفيض قائلة:

«سوف تأتي معنا وتجلس في الشرفة، أليس كذلك يا جيسون؟»

أجاب بصوت حازم وصارم:

«لا».

قالت الخالة بوضوح:

«ولكن، يا جيسون».

وتطلعت كرولي الى الرجال الثلاثة وهم في الشرفة فوجدت توني

و داني يتجاذبان الحديث، بينما راح بن يحدق في الفضاء، وهي كلها آذان صاغية لسماع الحوار الدائر بين الخالة و جيسون، الذي قال بحدة:
«لن أشترك في أي اجتماع يهدف الى المصالحة. لا فائدة ترجى. اتركيني أنا و بن وحدنا. لن يوجد أي فعل أو كلام يمكن أن يصلح الماضي، دعينا ولا تشغلي نفسك بالكراهية المتبادلة بيني وبين جدي».

رأت كولي الاضطراب، والألم على وجه الخالة عندما دلفت الى الشرفة، وتطلعت الى بن بنظرات كلها رجاء، وتوسل أن يلين قلبه ويتحدث الى حفيده جيس، لكنه لم يعبأ بها، وانما راح يحدق بشرود في الوهج القرمزي الذي كان يكسو التلال الواقعة على مرمى البصر. وراقبت كولي خالتها التي احتلت مكاناً أثيراً في قلبها خلال الست والثلاثين الساعة الماضية. فشذ انتباهها أن ترى كتفي الخالة متوترتين وذقنها مشدود، قبل أن تتخذ مكانها الى جوار بن، ولكنها سرعان ما استعادت كبرياءها وشموخها، وظلت كولي بعيدة عن المجموعة وقلبها يثب في نبضات سريعة، والألم يعتصرها وهي ترى أصابع يد خالتها، ذات الأظافر المخضبة بالطلاء الأحمر، تصب القهوة في الفناجين، وبعدما قدمتها، امتدت هذه الأصابع حول عنقها لتثبت العقود على صدرها. وعندما أحست كولي أنها لم تعد تحتمل منظر خالتها وهي تحترق ألماً، انفلتت خارجة من الشرفة، واتخذت سبيلها الى الحديقة.

وبدون أن يراها أحد أو يستوقفها انسان، راحت خطواتها تسعى في هدوء عبر ممر يفضي الى واجهة البيت الخلفية. وأخيراً أبطأت في سيرها وبدأت تتجول بلا هدف بين أشجار البلوط. فقد كانت أفكارها مضطربة، وغير مترابطة.

وراحت تتطلع الى الأفق البعيد، شاردة الذهن، وهي تستعيد شريط الأحداث. فتذكرت الليلة التي أمضتها مع جيس. لكنها كانت مختلطة بصدى كلمات بن:

«قاتل... قاتل... قاتل...» فتطلعت في حيرة إلى السماء، ونجومها المتلألئة، وتأملت السحب تزلها الأضواء، تذكرت الندبة التي تشق وجهه واشارتها الساخرة اليها.

وأغمضت عينيها لتحاول أن تسدل الستار على الصور التي تراها في خيالها. وتساءلت: ترى ما سبب الكراهية التي تتأجج بين الجد و حفيده؟ ولماذا لم يخبرها جيس تلك الليلة أنه حفيد مالك هذه المزرعة؟ ولماذا تركها تعتقد أنه أجير فيها؟ لا بد أنه كان يعرف أنها ستكتشف الأمر!

وخفق قلبها بالود لأخيها داني. ذلك الانسان الذي تراوده الآمال الكبار.. لقد تاق الى أن تكون لها أسرة وبيت وها هي بين يديه. لكن هذه الأسرة تمزقها الكراهية وعدم الثقة. تقلصت أمعاؤها بالألم، عندما فكرت في الجدل الذي دار بين جيس والعم بن، وانتابها الخوف لأنها لا تستطيع أن تتجاوب مع الكلمات المريرة التي تفوها بها. وقالت لنفسها:

لا يمكن أن يكون جيس قاتلاً. واذا كان قاتلاً حقاً. فلا بد أن يكون مكانه الآن السجن. لا بد من وجود اجابات عن أسئلتها... وهذا ما يجب أن تعثر عليه.

وفي غمار هذه الدوامة من الاسئلة، سمعت كولي صوت عود ثقاب يشتعل وراءها، فانتابها الخوف، واستدارت تجاه الصوت، وصاحت بخشونة:
«من هناك؟»

تقدم شبح منها بدون أن يجيب، وأطفأ الثقاب. لكن ضوء القمر كشف عن قميص أزرق، ثم عن وجه... وتبينت أنه جيس الذي أخذ يتقدم ببطء نحوها، وهو يتمتم بأدب:
«مساء الخير ثانية يا آنسة ماكغوير. انها امسية جميلة للتجول في حديقة الورود، أليس كذلك؟»

توتر جسمها عندما وقف الى جوارها، وشعرت بصعوبة التحكم في رغبتها المحمومة التي كانت تحثها على الفرار لأنها وقعت أسيرة عينيه الزرقاوين ولكن لوهلة قصيرة. ولم تلبث أن حولت بصرها بعيداً عنه وتساءلت:
«هل عرف أو حدس أنها سمعت حديثه مع الخالة؟ وهل توقع أن يجدها هنا؟»
قالت له لاهثة الأنفاس:
«احتجت أن أستنشق قليلاً من الهواء الطلق. شعرت بالقلق عندما جلست في الشرفة مع الآخرين».

ثم حدقت فيه مترددة، فأحست بنظراته تنفذ الى أعماقها ولكنه سرعان ما أجاب بتجهم:

«كلنا في حاجة الى استنشاق الهواء الطلق... بعد تناول الطعام هل استمتعت بوجبة العشاء؟»

وكانت كولي تعرف أنه لا يشير الى الطعام، فأطرقت برأسها وراحت تنظر الى الأرض بدون أن تجيب عن السؤال. واستطرد ساخراً:

«لا بد أنك وجدت صعوبة في التلاؤم مع التكوين الخاص لأسرتنا، لكنني متأكد أنه لن يمضي عليك وقت طويل حتى تصبحي كالآخرين»

«هل أنت حقاً حفيد بن؟»

أجاب بابتسامة ساخرة والمرارة مرتسمة على شفتيه:

«أجل، أنك تجدين صعوبة في تصديق هذا. أليس كذلك؟»

هزت رأسها بالايجاب في صمت، وشعرت بقبضة يده تمسك بمرفقها وأنطلق يسير بها كأنه لا يطيق الوقوف في مكان واحد. قال لها:

«سمعت الشيء الكثير اليوم وأنا في مكتب بن... أليس كذلك؟»

أجابت كولي وهي تحس بالقلق يحرق أعماق رئتيها:

«أجل»

قال وهو ينفث دخان سيكارته:

«يا لسوء الحظ»

قالت وهي تتطلع اليه بتردد:

«لا أستطيع أن أفهم سبب الكراهية التي بينك وبين جدك؟ ماذا حدث؟»

ضحك ضحكة مريرة ممزوجة بالغضب، ثم قال:

«انها قصة طويلة... حكيت عدة مرات... والأفضل ألا تعرفيها، ليس في وسعك الانحياز الى أحد الجانبين، والا تمزقت تماماً كما حدث للخالة... اتركي الأمر جانباً»

ازداد اتساع عيني كولي وهي تبذل جهدها لتفهم فحوى عبارته فسألته:

«كيف؟»

وعندما أشاح بوجهه عنها، قالت له بصوت ناعم رقيق، ولكن تشوبه نبرة الاصرار:

«ولكنك لست قاتلاً»

«وهل أنا قاتل حقاً؟»

وكانت الكلمات ممزوجة بالمرارة الحزينة، مما دفع كولي الى أن تذرف دمعة ألم ندت من أعماقها. فقال لها وهما يسيران بلا هدف وسط الزهور:

«أرى ان ثوبك لم تفسده العاصفة كما يزعمون»

أحست بالامتنان لأنه غيّر دفة الحديث، فأجابت بهدوء:

«ما زال ثوباً جميلاً... بالرغم من تواضعه»

قال جيسون بصوت رقيق تشوبه نبرة الثقة التي بعث بها عبر مائدة العشاء:

«كلا... كلا... انه ليس كذلك... لكنني متأكد أنك ستعثرين على ثياب ستحوز رضاك عندما تقومين بجولتك غداً في الحوانيت»

وتناهت الى مسمعها أصوات ضحكات وصيحات صبيانية... فتطلعت الى جيسن متسائلة فقال لها:

«توني وأخوك يسبحان الآن... هل تحبين أن نذهب لرؤيتهما؟»

هزت رأسها موافقة، فتحولا صوب البيت، وكانت المصابيح التي تحيط بحوض السباحة تضيء لها الطريق، ووقفا بعيداً عن رذاذ الماء المتطاير وشعرت بعيني جيسون مسلطتين عليها فابتسمت له، ثم حولت بصرها نحو حوض السباحة، فصاح داني وهو يلوح لها بذراعه:

«مرحبا كولي... أين كنت؟»

وقال لها توني وشعره يبرق تحت الأضواء، وشفتاه تكشفان عن أسنانه البيضاء:

«اذهبي، وغيّري ملابسك. ارتدي المايوه... الماء جميل»

أجابت كولي وابتسامة خجل تضيء وجهها:

«لا أستطيع، ليس عندي مايوه».

قال توني ضاحكاً بمرح وهو يتطلع الى وجنتيها المتوردتين بحمرة الخجل:

«اذهبي الى الخالة وهي تستطيع أن تدبر لك واحداً».

قالت مبتسمة:

«لا، شكراً».

وشعرت بالغيرة تنشب أظافرها في شغاف قلبها عندما رأت توني يغوص كالسهم الى جوار أختها داني. سألها جيمس بخبث:

«هل تجيدين السباحة؟»

قالت كولي بصوت يشوبه الخجل والنعومة:

«كلا... لم أتعلم السباحة».

سألها:

«هل تحبين أن تتعلميها؟»

أجابت ونظراتها تتطلع اليه، وكأنها تحدثه بأنها تتمنى أن يتحقق لها هذا الحلم:

«بالطبع...»

قال جيمس وهو يحدق في حوض السباحة والأضواء تتراقص على صفحة الماء:

«اذا أحببت، فسأعلمك السباحة».

صاحت كولي قائلة، والفرحة تهز جسمها هزاً:

«حقاً! اذا لم يكن ذلك يزعجك».

تطلع الى وجهها السعيد، وقال:

«كلا على الاطلاق. فقط اطلبي من الخالة أن تشتري لك ملابس سباحة غداً».

قالت كولي فرحة:

«أوه... سأشتري واحداً... متى نبدأ؟»

أجاب:

«بعد غد. عادة أسبح في السادسة صباحاً، اذا كنت تستيقظين مبكراً».

تطلعت اليه، وتوقعت أن ترى ومضة مداعبة في عينيه، ولكن نظراته كان من الصعوبة تحديدها. فقالت له وكأنها تقطع على نفسها عهداً لا يمكن التراجع فيه:

«سأكون هنا في الموعد».

قال لها بأدب:

«جميل... طابت ليلتك يا كولي».

قالت كولي بينما كان جيمس يسير متجهاً نحو البيت:

«طابت ليلتك يا جيمس».

وراحت تراقب قوامه الفارع هنيهة. وقلبها يكاد يطير من الفرح ثم حولت بصرها نحو السابحين في حوض السباحة، وقالت لنفسها قريباً جداً... سنسبح مثلهما.

أخذت كولي تقضم أظافرها بعصبية واضحة، وهي ترى السيدتين تقومان بدراسة ملامح وجهها في مرآة صالون التجميل، وشعرت أنها فتاة صغيرة، ضئيلة البنيان، عندما أمسكت خالتها بخصلة من شعرها وراحت تناقش مشكلته مع مصففة الشعر غلوريا، التي هزت رأسها متفقة في رأيها مع رأي الخالة وتقدمت نحو المقعد حيث جلست كولي وأمسكت بذقنها وراحت تهز رأسها يميناً ثم يساراً، كأنها تدقق النظر فيها وتدرس ملامح وجهها، ولا تدري كولي من أين ظهر المشط فجأة حيث راحت غلوريا تطوح به الخصلات هنا وهناك.

وأخيراً وجهت حديثها الى كولي قائلة:

«حسناً أيتها الفتاة... فلنبدأ العمل».

حاولت كولي أن ترسم ابتسامة خفيفة على شفتيها عندما رأت شابة اخصائية تقبل عليها لتقوم بغسل شعرها بالشامبو وقد أشارت غلوريا على الاخصائية باستخدام نوع خاص منه عند شطف الشعر، ولم تشعر كولي بارتياح لها عندما وجدت أصابع الأخصائية تدلك الشعر بحمية ونشاط وتنفست الصعداء عندما لفت الشعر بالمنشفة، وتركتها بين يدي خبيرة التصفيف التي قامت بتنشيفه، ثم قسمته أقساماً، واستخدمت المقص في تشذيبه. وتطرت

كولي بطرف عينيها فرأت بعضاً من شعرها يتساقط على الأرض، وبعد ذلك قامت الاختصاصية بلف كل خصلة حول رولو، وعندما حدقت كولي في المرآة رأت شعرها ملفوفاً حول عدد كبير من الرولات ثم قادتها الأخصائية بعد ذلك الى أحد المجففات وأدخلت رأسها فيه، وتركتها.

أحست كولي بثقل غريب فوق رأسها. فلم يحدث لها أن دخلت الى صالون تجميل من قبل. وأقصى ما كانت تفعله هو أن تترك احدى جاراتها تقوم بقص شعرها وتشذيب أطرافه، ولكنها الآن تجلس في صالون التجميل، وترى العاملات في زهو، غاديات رائحات بين السيدات لوضع اللمسات الأخيرة في التسريحة. ولم تستطع كولي أن تكبح هزة اجتاحتها عندما فكرت في أنها ستغدو بعد قليل متألقة في تسريحة رائعة مثلهن، وبعد أن انتهت كولي من شعرها، جاءت غلوريا وطلبت منها أن تنتقل الى مقعد آخر أمامه مائدة صفت عليها أنواع مختلفة من أدوات التجميل والمساحيق.

كانت الخالة فيلهلمينا تقف الى جوار خبيرة التجميل، وقد لفت هي أيضاً خصلات شعرها الفضي حول الرولو وجاءت لتدلي برأيها في اختيار المساحيق التي سوف تستخدم في تجميل وجه كولي، وبدأت الاختصاصية بوضع كريم الأساس، ثم جاء بعد ذلك دور ظلال العين. اختارت ظلاً زيتوني اللون، ليؤكد لون عيني كولي، وانتقلت بعدها الى تجميل الرموش بالماسكرا، وأخيراً صبغت الشفتين بأحمر الشفاه. وعندما تم وضع المساحيق، عادت كولي الى المقعد الأول، وتم رفع الرولات من الشعر، فانتابها شعور بالسعادة عندما رأت شعرها متموجاً حول وجهها.

وعندئذ تحدثت غلوريا الى الخالة قائلة:

«الآن سأستعمل سائلاً ملوناً ليضفي ظلالاً ذهبية على شعر كولي».

وأثناء الحديث تركت الاختصاصية الفرشاة تجري بين خصلات الشعر ثم أمسكت بالمشط لتصنع الثنايا المطلوبة، وتبرز المقصات هنا وهناك وتؤكد التموجات، واستعملت السائل الملون ليضفي الظلال الذهبية على الشعر.

وعندما أنهت غلوريا عملها، تطلعت كولي الى نفسها في المرآة، فرأت فتاة لا تمت بصلة الى التي دلفت صالون التجميل منذ قليل. بدا وجهها رقيقاً جذاباً في تسريحة متموجة أخاذة، تدير رؤوس الرجال بجمالها الساحر. صاحت كولي والخوف ينتازعها:

«خالتي هل أنا حقاً كولي؟»

أجابت الخالة وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيها:

«أجل يا عزيزتي كولي... أما أنت يا غلوريا فسيدة عظيمة، جديرة بالاعجاب والتقدير».

أجابت مصففة الشعر وأعطافها تتيه بهذا الاطراء:

«وأنت أيضاً يا سيدة غرانجر».

ثم قامت تنثر سائلاً على شعر كولي ليساعد على تماسكه، وأردفت تقول:

«الآن... أيتها السيدة الصغيرة... أنت جميلة للغاية، ولك أن تفخري بنفسك».

قالت كولي لاهثة:

«أشكرك... أشكرك شكراً جزيلاً».

ولم تكن تريد أن ترفع عينيها عن المرآة، فقد أصبحت شخصاً جديداً، وغادرت الصالون بصحبة خالتها، وراحتا تتجاذبان الحديث حول الحوانيت التي ستتوجهان اليها، وأي الأثواب ستحتاج اليها كولي وأحست أنها تسبح في دوامة أخرى حينما راحت ترتدي السراويل، والسترات، والملابس المنزلية، وملابس الحفلات، والتنانير، وكانت تبدو فيها جميعاً جميلة. وسمعت خالتها تطلب من البائعة زوجين من الجينز، ولم تستطع كولي أن تعيش السعادة كاملة اذ اعتراها شعور بالذنب للثمن الباهظ الذي ستدفعه خالتها، فهمست في أذنها قائلة:

«خالتي هذه الملابس ستكلف كثيراً».

قالت الخالة بدهشة:

«لا تقلقي كثيراً يا كولي انك في حاجة اليها، ثم انني أتمتع بكل لحظة

لنفسها هناء.

وكانت كولي بدورها تستمتع بهذه اللحظة، فكلما نظرت الى المرآة، كانت تشعر بالزهو والخيلاء، وتسارع بمد يدها الى شعرها لتتحسس موجاته وخصلاته الحريرية، وحينما ارتدت الثوب الأصفر الذي زينت عنقه وحافته الدانتيلا، وتطلعت الى نفسها في المرآة، وقفت مشدوهة، مأخوذة بجمالها. ولم تصدق عينيها، فهي جميلة... جميلة للغاية... بل فاتنة!

صاحت الخالة فيلل:

«اللون الأصفر يناسبك».

وسمعت كولي خشخشة العقود التي تزين صدر خالتها، عندما حاولت تثبيتها على صدرها الذي اهتز فرحاً واعجاباً بالفتاة وصاحت تنادي على البائعة:

«يا آنسة لو سمحت... أحضري لي ثوب الحفلات المصنوع من الشيفون الأصفر والموضوع على هذا المانيكان».

قالت البائعة:

«تحت أمرك... سيكون جذاباً عليها».

وحاولت كولي أن تقول:

«خالتي أنني لست في حاجة الى ثوب آخر فهذا الثوب الذي أرتديه جميل للغاية».

قالت الخالة بصوت ينم بالحزم:

«هراء ما تقولين... صحيح أن هذا الثوب ممتاز ولكنك في حاجة الى ثوب آخر للحفلات، يجب أن تكون لديك عدة أثواب. ولكن ماذا تفعل والثياب الموجودة هنا قليلة. ولا تستطيع أن تنتقي منها ما تشاء!؟ أمامنا واحد أو أثنان في الوقت الحاضر».

وعندما ارتدت كولي ثوب الشيفون، بدت أميرة، بل كأنها جنية تسبح كالفراشة الهائمة، وبدا جسمها النحيل كالأشعة الأثيرية... خفيفة... ذهبية اللون.

فمضت الخالة قائلة:

«سنحتاج الى بعض مكملات الزينة التي تتمشى مع لون الفستان. سنختار بعضها حالما تفرغين من تغيير ثيابك، وأعتقد يا كولي أننا اشترينا ما نحتاجين اليه في الوقت الحاضر سارعي الآن واخلعي هذا الثوب وارتدي ملابسك».

قالت كولي بتردد عندما شرعت خالتها في أن تدور على عقبيها:

«خالتي».

«نعم... ماذا تريدين يا عزيزتي؟»

تلعثمت وهي تقول:

«ليس عندي مايوه».

صاحت الخالة:

«يا الهي! نسيت تماماً ذلك، بالطبع لا بد أن يكون عندك واحد، لم أفكر في أمر السباحة...»

قالت كولي في حيرة:

«لم أتعلم السباحة بعد...»

«ألا تعرفينها حقاً؟ من الذي سيتعهد بتعليمك، هل هو داني؟»

أجابت كولي بتردد، وأن كانت لا تدري ماذا سيكون صدى كلامها لدى خالتها:

«لا... وانما جيس قال انه سيقوم بتعليمي اذا كنت لا تمانعين؟»

أجابت الخالة:

«بالطبع، لا مانع لدي».

ولكن لم تلبث الخالة أن قطبت جبينها، وضيّقت ما بين عينيها الزرقاوين، ثم عادت تتساءل:

«هل سيقوم جيسون بتعليمك السباحة؟»

أجابت كولي:

«أجل يا خالتي».

قالت الخالة:

«هذا أمر غريب».

ثم بدأت تقول وكأنها توجه الحديث الى نفسها، وليس الى كولين:

«سنطلب من البائعة أن تقدم لنا أحسن ما لديها».

وفي ذلك المساء، ارتدت كولي ثوبها الأصفر، وتطلعت الى نفسها في المرآة للمرة الأخيرة، وكادت تطير فرحاً لمنظرها، وعندما سمعت أخاها يغادر الحمام، ويعود الى غرفته، أسرعت لتكون أول شخص يقع بصره عليها، وهي ترتدي ثوبها الجديد وهتفت:

« داني... أنا كولي... افتح لي الباب».

وفتح داني الباب، وهو عاري الصدر، ويداه تجففان شعره فدلفت الى الداخل وراحت تدور وسط الغرفة. فتطلع اليها أخوها بدهشة قائلاً:

«هل أنت كولي... حقاً؟»

«أنا جميلة... أليس كذلك يا داني؟ يجب أن ترى الملابس الجميلة التي اشترتها لي الخالة، وما رأيك في شعري؟ هل أعجبتك التسريحة؟»

ضحك داني وقال:

«شقيقتي أصبحت سندريللا! هل تسمح لي سموها بأن أصحبها الى مائدة العشاء؟»

وانحنى أمامها، فطارت المنشفة أمامه، وضحكت كولي في جزل وهي تقول له:

«يسعدني أن أصحبك... يا سيدي!»

فقال:

«يمكنك أن تغادري الغرفة لأرتدي ثيابي».

غادرت كولي الغرفة وهي ترقص، وبعد دقائق كان داني يقف أمام

بابها، وقدم لها يده وأخذا يهبطان درجات السلم، فشعرت أنها أميرة، تتشح بالكبرياء والثقة الفائقة التي وهبتها مزيداً من الحسن والجمال. وعندما فتح لها داني باب غرفة الطعام، دخلت واثقة الخطى... وتألقت عيناها وهي تنظر الى الجميع الذين التفوا حول المائدة، فنهض توني عن مقعده والدهشة بادية على وجهه وأشرقت ابتسامة رقيقة عندما شخصت ببصرها نحو بن ورأته يبتسم وهو يتطلع اليها.

صاح توني وهو يدور حول المائدة ليقف أمام كولي:

«خالتي! ـ أنت ساحرة!»

حولت كولي بصرها نحو جيس وتوقعت أن تسمع منه صدى كلمات توني أو على الأقل الاطراء الذي لاح مرسوماً في عيني بن، ولكن وجهه بدا جامداً، فانتابها الألم والاضطراب، قبل أن تتأبط ذراع توني الممدودة لها ولو أنها تطلعت الى خالتها لوجدت الحيرة نفسها مرسومة على وجهها وهي تدرس سلوك جيس باهتمام زائد.

وكان طعام العشاء، حلماً طالما راودها منذ أمد بعيد، فقد تقدم نحوها توني وهو يغازلها بعينيه وكلماته، وحتى الرجل الكهل القابع في المقعد المتحرك خرج عن وقاره وراح يداعبها مداعبة الفرسان ورأت زهو الكبرياء في عيني أخيها عندما وجد الجميع مأخوذين بها فيما عدا جيسون الذي خيّم عليه صمت مطبق. وعندما غادروا الغرفة وانطلقوا الى الشرفة، أسعدها أن ترى جيسون ينضم اليهم. وقد جلست على أريكة، بينما جلس داني في ناحية منها وجلس توني في الجانب الآخر أما جيس فراح يدخن سيكارة وهو جالس على مقعد قريب منهم.

مالت كولي برأسها نحو توني وسألته:

«هل أدهشك الى أي مدى تغيرت؟»

راح توني يحدق فيها مشدوهاً، وهو يلتهمها بنظراته ثم أجاب:

«ألقيت بي أرضاً عندما دخلت الغرفة، كنت أشبه بالفتاة الرثة التي أصبحت

ستغدو بلا، بفضل الخالة لِيالي، وقد أنا بدور الأمير المأخوذ بسحرك، فلم أنطق بكلمة واحدة».

تردّدت ضحكة كولي في أرجاء الشرفة، وهي تشرى بكلماته، وكأن حفلات رأس السنة قد انبعثت في هذه اللحظة، ثم قالت بنعومة:

«شعرت اليوم وكأنني أميرة...»

وصمتت، وكأنها أحست بالخوف من زوال سحر هذه اللحظة التي تحيط بها، فتطلعت ببصرها بلا وعي الى جيس وهي تواصل حديثها:

«لكنني أتوقع بين لحظة وأخرى أن تدق الساعة، فأعود الى بؤسي وشقائي... هل أبدو مختلفة يا جيس؟»

كان جيس وحده يستطيع أن يعرف وجه الاختلاف، فقد رآها في ملابسها التي أغرقتها مياه الفيضان. وها هو الآن يراها شابة، جذابة في ثيابها المتألقة، وانتظرت بفارغ الصبر أن يجيب عليها، وأن تأتي اجابته بالموافقة على أن التغيير واضح للعيان. وأخيراً قال:

«أنت لا تبدين أمامي كالأميرة بتاتاً. توني أخطأ في وصفه».

وصمتت، وخلال صمته شعرت بالجرح يدمي قلبها، وهي ترى طاقتي أنفه تهتزان غضباً، فحاولت أن تلتقط بصعوبة أنفاسها، وتتحكم في أعصابها، بينما استطرد يقول:

«أنت تشبهين احدى ورود الخالة، احدى براعمها الصغار، التي تتسم بالنقاء والبراءة... والتي على وشك أن تتفتح».

تردّدت كلماته الرقيقة الواضحة عبر الصمت الذي ران على الشرفة.

وشعرت كولي بالفرح لهذا الاطراء، الذي يعني أنها بدأت تضع قدمها في بداية مرحلة النضج. وفجأة بدد صرصر بنيامين سالدج الصمت وهو يقول:

«الكلمات ما زالت تنطلق بسهولة من بين شفتيك... يا جيس»

وفشل جيس في أن يعثر على اجابة عن هذه الكلمات الساخرة ولم يجد أمامه

من سبيل سوى أن ينهض من مقعده ويتمتم قائلاً:

«اسمحوا لي بالانصراف».

وانحنى ليحيي خالته... وراقبته كولي وهو يهبط درجات الشرفة التي تفضي الى الحديقة، ويسير بعيداً حتى ابتلعه ظلام الليل. وكانت خطواته بطيئة ولكنه منتصب القامة.

وتحركت كولي لتحتج على عمها، ولكن نظرة داني الحادة جعلتها تخلد الى الصمت!

٤ ـ الخيل والماء

راحت كولي تراقب الرجل القوي يضرب بذراعيه المفتولتين مياه حوض السباحة بلا مجهود يذكر، وقد ومضت بشرته بتألق جميل تحت شمس الصباح، كانت تعرف أنها تأخرت عن موعد تمرينها الصباحي، لكن دقة ضربات الذراعين في الماء نالت اعجابها، وتساءلت هل تستطيع أن تتغلب على مخاوفها وتجيد السباحة مثله.

وكان هذا الصباح يعتبر خامس يوم تتلقى فيه دروس السباحة، وبالرغم من أن رغبتها في تعلّم السباحة كانت قوية، الا أنها كانت تشعر بخوف من الماء، وقد ساعدها جيس أن تتغلب على مخاوفها. وفي هذا الصباح حققت تقدماً كبيراً في تدريبها، يفوق اليوم الأول الذي بذل فيه جيس جهداً كبيراً لكي يحملها على النزول الى الماء، وقد ادهشه أن يراها تتمسك بالصبر في التعلم برغم مخاوفها، وأن تتشبث بالأمل في أن تصبح سبّاحة ماهرة. وبدأ جيس في تعليمها القواعد الأساسية للسباحة خطوة فخطوة، حتى تفهمتها جيداً، وأقنعها أن تغوص في الماء وتطلق الهواء من فمها، وبعد ذلك أخذ يدربها على أن تمسك بيديها حافة الحوض، وتحرك قدميها حركات متناسقة، ثم راح يعلمها كي تحرك ذراعيها، ونجحت في أن تضرب الماء بلا جهد كبير.

كانت تقف عند حوض السباحة عندما رأته يعبر الى الطرف الآخر ثم توقف قليلاً، نفض الماء الذي بلل شعره، وأمسك الحافة باحدى يديه، وعندما وقع بصره

عليها، لوّح لها بيده الأخرى محيياً، ثم قال:

«تأخرت في النوم هذا الصباح...»

وطلب منها أن تسرع بالنزول الى الماء، فسارت كولي الى حافة الحوض، واصطبغ وجهها بحمرة الخجل عندما خلعت رداء الاستحمام وسبح جيس ببطء حتى بلغ المكان الذي وقفت عنده، واستقر بقدميه على أرضية الحوض، وترك رأسه يعلو صفحة الماء. وراح ينفض الماء عن وجهه ويبعد شعره عن جبينه، ثم تطلع الى كولي مأخوذاً بجمالها وهي ترتدي المايوه. وبعد ذلك قال لها:

«ستتدرب اليوم على السباحة طفواً. تعالي اليّ وأنت تسبحين على بطنك، وتذكري أن يظل رأسك في الماء».

أخذت كولي نفساً عميقاً، وبدأت تنزلق الى الماء تدريجياً، ومدت ذراعيها أمامها، وراحت تسبح على بطنها، ورأسها في الماء، وقطعت مسافة استغرقت عدة ثوان، لكن خيّل اليها أنها سبحت عدة ساعات وأخيراً لمست راحتاها يدي مدربها، فرفعها الى أعلى، وعندئذ مسحت الماء عن رأسها، وتطلعت اليه تسأله عن مدى نجاحها في محاولتها، ولكنها كالعادة رأت القناع المعهود يكسو وجهه، ولم يقل لها شيئاً سوى:

«حسناً... فلنعد الكرّة».

وأعادت كولي التمرين مرتين، وكانت تطفو بجسمها على الماء وتضرب الماء بقدميها في حركات منسجمة وهي تسبح ببطء نحوه، وعندما وصلت اليه قال لها:

«حسناً... فلنبدأ الآن السباحة على الظهر... انها سهلة، فقط استرخي كما فعلت في المرات السابقة، أمسكي بيدي».

أطاعته كولي، واستلقت على ظهرها، مستعينة بذراعيها، ولكن الماء تلاطم بوجهها، وفوق رأسها، فاختل توازنها، واضطربت، وراحت تبحث عن يديه لعله ينقذها.

قال لها بصوت تنم نبرته بالصبر:

«لا تنزعجي ـ استلقي ثانية على ظهرك، واسترخي. لا تشدي جسمك».

أغلقت عينيها حتى لا يقرأ الخوف فيهما واستلقت على ظهرها، واستسلمت ليديه الحازمتين، وراح يسند كتفيها الى ذراعيه. حتى أصبح ظهرها يطفو ساكناً فوق الماء. وفكرت أن الأمر ليس صعباً كما كانت تتصور بينما راحت موجات رقيقة من الماء تلطم جسمها، وشعرت بالهدوء والسكينة عندما استقر جسمها فوق الماء، فانعقدت ابتسامة السعادة على شفتيها.

سألها جيمس:

«أظنك استمتعت بهذه السباحة.. أليس كذلك؟»

التقطت كولي أنفاسها، وقالت:

«انها مريحة للأعصاب».

وفتحت عينيها لتتطلع اليه فرأت السرور بادياً في عينيه، وكأنه يجيب على ابتسامتها، وعادت تغلق عينيها مرة ثانية، فسمعته يقول لها:

«الآن لم يعد ينتابك أدنى خوف، حركي يديك قليلاً لكي تدفعي جسمك الى الوراء».

وعندما بدأت تحرك ذراعيها بعنف، شعرت أنها تغرق في الماء ولكنه سارع الى مساعدتها على حفظ توازنها بيديه، وأردف يقول:

«قلت لك حركي يديك قليلاً.. قليلاً.. وليس بعنف».

وفي هذه المرة حركت يديها الى الوراء، وشعرت بسعادة عندما اندفع جسمها مع حركتها، فتنهدت حالمة، واسترخت مع تيار الماء، وفتحت عينيها لتسأله:

«هل حقاً نجحت في تعلم السباحة؟»

ولكنها لم تجده الى جوارها.. وفجأة انتابها الفزع، وأدارت رأسها بسرعة بحثاً عنه، فوجدته يقف على مسافة بعيدة عنها، وعندئذ سادت الأمور اذ اضطربت ساقاها وبذلت جهوداً يائسة لتعثر قدماها على القاع، وعندما عجزت، صرخت منادية:

«جيمس!»

وأخذت ذراعاها تضرب بالماء في محاولة مستميتة لتصل اليه، ورأته يسارع الى نجدتها وألقت بجسمها بين ذراعيه، وسبح بها حتى بلغ حافة الحوض في سلام، وعندما استقر بها المقام، وجدت نفسها لا تزال ممسكة بكتفيه، وجسمها يرتجف ويضطرب خوفاً فقال لها ويده ما زالت ممسكة بخصرها:

«هل أنت بخير الآن؟ كنت رائعة وأنت تسبحين نحوي!»

سألته:

«أحقاً ما تقول؟»

كان الفزع يملأ عينيها وهي تحدق في عينيه، وتتلمس الهدوء لنفسها المضطربة في قربه، ثم أردفت تقول:

«ولكن لماذا ابتعدت عني؟»

أجاب مبتسماً، وهو يحاول أن يبعث الطمأنينة في قلبها:

«لأنك ما عدت في حاجة إلي... كان جسمك طافياً بدون معاونة مني، واستطعت السباحة وحدك».

شعرت كولي بدفء اطرائه برغم الفزع الذي ملأ قلبها منذ لحظات فسألته:

«هل نجحت في محاولتي؟»

ابتسم ابتسامة رقيقة، ثم قال:

«أجل نجحت».

ولم تتوقع كولي أن تجد نفسها تطيل النظر الى حركة شفتيه، وبدأت تدرك مدى المسافة القصيرة التي تفصل بينهما، فأحست بلمسة يده الحارقة تلسع خصرها وبدأ رأسه يميل نحوها فشعرت بعينيه تخدرانها، ولكنها أفاقت على صوت أتى من أحد جوانب حوض السباحة، يقول:

«ماذا لدينا هنا؟ موعد غرام في هذا الوقت من الصباح الباكر؟»

امتدت يد جيمس لتدفع كولي بعيداً بجفاف، لكنه لم يدعها تذهب عنه،

وإذا التفت نحو وجه توني الساخر، وقال جيس:

«كنت أدرّب كولي على السباحة. الخوف يتملكها من المياه العميقة».

قال توني ساخراً:

«ورأي الحنون سيقبلها لكي يزيل المخاوف عنها...»

اصطبغ وجه كولي بحمرة الخجل، وتركت ملاذ جيس الذي كانت تحتمي به، وشرعت تأخذ سبيلها على طول حافة الحوض، حتى بلغت الأعماق الضحلة، وتألقت الفتنة في وجه جيس وهو يتطلع الى توني بوجه متجهم، قبل أن يتحرك، ليقتفي أثر خطوات كولي المتقهقرة.

قال توني:

«إذا كانت دروس السباحة بهذه الصورة، فانني على استعداد للانتظار حتى تسنح لي الفرصة يا ابن الخال... في يوم ما».

راح توني يضرب بأسنانه، وهو يتطلع الى كولي و جيس، قبل أن يأخذ سبيله الى الحديقة وهو يصفر بمرح، وراقبت كولي رحيله وتساءلت، «كيف تستطيع مواجهة جيس بعد كل ما حدث! كانت تعرف انه يقف على مقربة منها، وعيناه تتسلطان فيها، وأخيراً قال بصوت تشوبه الخشونة:

«يكفيك ما تلقيته من درس هذا اليوم».

فهزت كولي رأسها موافقة. وكان جيس يقف أمامها واحدى ذراعيه على درابزين سلم الحوض، وبيده الأخرى على خصره، وشعرت بالرغبة لعدوها في أن تمر به سريعاً، ولكن الله عاق خطواتها فأبطأت سيرها وحرصت على أن تنكس رأسها، حتى تخفي حمرة الخجل التي اصطبغت بها وجنتاها وقد راح الضباب يتراقص أمام عينيها وهي تتسلق السلم، فتعثرت قدمها عند أول درجاته وأسرع جيس يساعدها لكنها تفلتت منه ونجحت في الخروج من الماء. وتوجهت الى مقعد طويل وألقت بجسمها، وبدأت تجفف شعرها بالمنشفة، وتمنت في هذه اللحظة أن يرحل جيس، ولكنه راح يحوم حولها كالصقر الذي يريد أن ينقض

على فريسته. فحاولت أن تتجاهله وكان لزاماً عليها أن - تفعل ذلك لأنها لا تستطيع مواجهته، وعلى الأخص... وهي في هذه الحالة.

ولكن يده امتدت نحوها وأطبقت على ذقنها، وأدار وجهها نحوه وشعرت أنه يقوم بدراسة وجهها باهتمام زائد، ولكنها لم تستطع أن تواجه نظراته. وفجأة تركها، تماماً كما أمسك بها فجأة. وسار بضع خطوات نحو المقعد الذي على يمينها، حيث كانت منشفته، وسمعت صوت عود ثقاب يشتعل ورائحة سيكارة تنفذ الى خياشيمها وفجأة سمعته يقول:

«قلت لك انك دائماً انسانة حساسة. واذا دامت الامتاك هذا فلا بد أن يخدشوش جلدك».

وبعد ذلك ذهب فأحكمت وضع الفوطة حول كتفيها، وقالت لنفسها: «انه على صواب، انها فتاة حساسة للغاية ومن الحماقة أن تنزعج لذلك. الحق على توني وراء ما تشعر به من ضيق. انها لا تعرف ان كان حقاً قد راودته هذه الرغبة! وفجأة شعرت كولي انها في حاجة الى جيس - وعلى الفور انتابها ذهول عندما اكتشفت ذلك فراحت تحدق في حوض السباحة، شاردة الذهن.

كانت تشعر دائماً بخجل من أن تقيم أية علاقة مع الجنس الآخر، وخاصة بعد القصة الشيئة التي حدثت مع كارل، لكن منذ دقائق مضت كان الموقف مختلفاً، فعندما أمسك بها جيس شعرت أن ما يفعله شيء طبيعي وصحيح، وأن ما ضايقت منه هو مفاجأة توني لها... في لحظة حساسة!

واتخذت سبيلها نحو البيت، ارتقت الدرجات الى غرفتها وكان ما يقلق بالها هو اكتشاف ما حدث، وأمضت بقية الصباح تسير في أعقاب مع خالتها بجولتها اليومية في حديقة الزهور، وأثناء وجبة الغداء، وجدت أفراد الأسرة قد التفوا حول المائدة.

وابتسمت كولي عندما تطلعت نحو جيس وقد عبّرت عيناها عن اعتذار صامت لسلوكها في الصباح لم تستطع أن تصوغه في كلمات، وأدرك جيس ما

يجول في عينيها فهز رأسه هزة لا تكاد تكون ملحوظة وكأنه يقول لها انه يقبل اعتذارها.

وكان داني متجهماً قليلاً وهو يجلس الى جوار كولي بينما غمز توني لها بعينيه. فبذلت جهداً مضنياً لتحتفظ بهدوئها، بالرغم من وجود نقطتين شاحبتين على وجنتيها.

سألها توني وفي عينيه نظرة خبيثة:

«كيف حال دروس السباحة؟»

لم يحتمل داني وقع السؤال، فطعن بشوكته حبات البسلة الموجودة في طبقه، وأجابت كولي وهي تتقبل صحنها من بن:

«سأكون ممتازة مثلك ومثل أخي داني».

قال توني وهو يكشف عن أسنانه بابتسامة صفراء:

«عندما تصلين الى المستوى الرفيع، فلماذا، لا أحل محل جيس؟ انني مدرس ممتاز».

وتطلعت الى جيس والتقى بصرها بنظرته النافذة، وكان ينتظر اجابتها. وأحست برغبة في ألا تترك توني يضايقها، كان عليها أن تكشف لجيس بأن جلدها اخشوشن، وأن في وسعها أن تواجه الموقف. فقالت ببرود:

«حقاً.. يا توني؟ لم أعرف أنك خبير في مهنة التدريس».

اختلس توني النظر الى جيس ورأت كولي ابتسامة ماكرة على شفتيه حاول أن يكتمها بوضع قطعة من اللحم في فمه وهنا التفتت نحو أخيها كأنها تستنجد به ليقوم بتغيير دفة الحديث، وسألته:

«ماذا فعلت هذا الصباح؟»

لم يستطع داني أن يخفي نبرة الزهو في صوته وهو يقول:

«كنت أعتني بالفرس التي ولدت مهراً وكان علينا ألا نغيب عيوننا عن المهر».

صاحت كولي وقد هزها نبأ مولد المهر:

«وليد صغير».

والتفتت الى بن باضطراب وسألته:

«هل أستطيع أن أذهب لرؤيته؟»

ابتسم بن وقال بمرح:

«طبعاً.. يمكن أن يصحبك داني بعد الغداء».

فسألت أخاها:

«هل أصحبك يا داني؟»

أجاب داني:

«طبعاً.. ولكن يجب أن ترتدي الجينز، فالثياب القصيرة لا تتناسب مع الحظيرة».

دفعت كولي مقعدها الى الخلف، ونهضت وهي تصيح قائلة بسرور واضح:

«حالاً.. هل تسمحون لي بالانصراف؟»

قالت لها الخالة:

«ولكنك لم تتناولي الحلوى؟»

قالت وهي على باب الغرفة:

«لست جائعة، سأتناولها فيما بعد. انتظرني يا داني...»

«سأنتظرك».

وكان صوته هادئاً. وقد ارتسم تعبير سعيد على محياه عندما رأى الابتسامة على وجه شقيقته وهي تغادر الغرفة. وراحت كولي ترتقي الدرجات بسرعة، وأخذت تسحب أدراجها، لتخرج منها بنطلون جينز واستبدلت ثيابها في وقت قصير. ثم وقفت أمام المرآة تمشط شعرها، وتضع لمسة من أحمر الشفاه، و انطلقت تهبط الدرجات ووصلت لاهثة الى حيث يقف أخوها في انتظارها عند الباب نافذ الصبر.. وعندئذ قالت له:

«انني مستعدة».

غادرا المنزل وسارا جنباً الى جنب، وحاولت كولي أن تهدىء من خطوات

قدميها الملتفتين حتى تساير خطوات أخيها الرزينة، وابتسمت ابتسامة سعيدة وهي تتأبط ذراعه، وقالت له:

«لماذا أنت جاد بهذه الصورة؟»

سألها متجهماً:

«ماذا حدث في حوض السباحة هذا الصباح؟»

وكانت مفاجأة بالنسبة اليها أن تواجه منه مثل هذا السؤال، وأدركت من روى له القصة، فأجابت قائلة:

«أعتقد أن توني تكلم معك».

بدا الاهتمام على وجه داني والتساؤل في عينيه عندما نظر الى وجه شقيقته، وأخيراً خرجت الكلمات من بين أسنانه وهو يقول:

«أخبرني توني بأنه رأى جيسون يميل عليك...»

أجابت كولي:

«لم يكن الأمر على هذه الصورة!»

وراحت تحدثه عن الخوف الذي اعتراها عندما كانت تسبح في المنطقة العميقة من حوض السباحة، ومبادرة جيسون لانقاذها.

وأضافت تقول:

«كنت متعلقة بكتفيه لأنني كنت خائفة. وحدث ذلك عندما أقبل توني».

التقط داني أنفاسه وكأنه كان ينوء تحت عبء ثقيل، وقال:

«اذن... هذا كل ما في الأمر!»

حاولت كولي أن تعثر على كلمات تقولها لشقيقها لكنها لم تجد شيئاً تقوله سوى:

«حسناً...»

ولم تستطع أن تواصل كلامها لأن مشاعرها كانت مضطربة. فقد كان من عادتها أن تفضي بمشاكلها لأخيها، وهي في هذه اللحظة في أمس الحاجة اليه كي

يضع الأمور في نصابها الصحيح. وبعد فترة من الصمت أضافت تقول:

«ليس الأمر هكذا. وانما أحسست بعد ذلك برغبة في عناقه... لكنني لم أفهم حقاً سبب رغبتي. وكان سبب خجلي وارتباكي ظهور توني المفاجئ. كنت أرغب في عناقه وهو شعور لم أحسه من قبل وخاصة بعدما حاول كارل...»

وعاد الصمت بينهما فبادر داني يقول:

«كولي... هناك بعض الأمور التي تجهلينها عن جيس...»

قالت كولي بصوت منخفض مما اضطر داني الى الانحناء:

«سمعت جيس والعم بن يتناقشان ذات يوم، عقب وصولنا وقد وصفه العم بن بأنه «قاتل». أليس هذا ما يتحدثون عنه؟»

راح داني يدرس ملامحها قبل أن يجيب، وأخيراً قال:

«أجل. هذا ما أريد أن أتحدث عنه. سمعت أشياء كثيرة وحكايات لا أدري مدى صدقها. وفي أي حال، فانه أكبر منك بثلاثة عشر عاماً، ولا أدري... انما كل ما أريده منك هو ألا تقتربي منه كثيراً والا أصابك ضرر بالغ».

وكانت هذه هي المرة الثانية التي تلقت فيها تحذيراً. الأول من جيس نفسه، وراودها هذا التفكير عندما بلغت الأسطبل. وسألت نفسها، هل ما زالت تبدو في نظرهم طفلة؟ ألا يمكن أن يثقوا بحكمها على الأمور؟

وواصلا سيرهما في طريق مسقوف، و كولي تتلفت حولها. الحديث الذي دار بينها وبين شقيقها أثارها قليلاً. فلم تلحظ المباني المحيطة بها. لكنها استطاعت أن تثوب الى رشدها، ورأت على بعد مئات من الياردات حظيرة كبيرة للماشية، أحيطت بسياج متين. ولم تستطع أن تتبين جيداً نوع القطيع وراء الأسوار فلفتت انتباه داني، وسألته:

«ما هذا القطيع هناك؟»

«أتقصدين القطيع في الحظيرة ذات السياج؟ انه قطيع براهما يقومون بتربيته لعرضه في مباريات الروديو التي تقام لاختيار أحسن قطيع، وقد نهضت من

جيس انه يجري بعض التجارب لتهجينه. والقطيع يحتمل الحشرات والطقس الحار، وهو أفضل بكثير من نوع الهيرفورد و الأنغوس. ومن خصائص قطيع براهما انه جامح، سريع الغضب، ولذلك كان من الضروري اقامة مثل هذا السياج المنيع حتى يمكن تجنب مهاجمته لأحد، فاحرصي يا كولي على عدم الاقتراب من حظيرته. انهم لم يقيموا هذا السياج الا من أجل حماية الناس».

هزت كولي كتفيها هزة خفيفة، وتذكرت مباريات الروديو التي كانت تقام وتحرص على مشاهدتها، ومنظر الثيران الجامحة التي كانت تدفع براكبيها الى الأرض، لا لن تقترب من هذا القطيع.

رأت كولي شقيقها داني يسير الى حظيرة تقع في القطاع الجنوبي من الاسطبل، ويطلب منها ان تتقدم وعندما اقتربت قال لها:

«هذا هو المهر الصغير».

ووضع داني يداً حانية على عنق المهر الذي تألق لونه البني. وأمسك بيد أخته كولي، وجعلها تنظف الى جواره وتراه على الأرض ممدداً في تراخ. ثم قال داني:

«هذا هو جوني الذي أنجبته الفرس أخيراً».

ويبدو أن الفرس كانت تشعر بأن داني يعرض المهر على كولي، فراحت تدفع المهر برأسها لينهض، وبعد محاولات نجحت الأم في مهمتها، مما أثار ضحك كولي.

قال داني وهو يراقب شدة اهتمام شقيقته بالمهر:

«سينمو خلال ثلاثة أشهر».

وحاولت كولي أن تلاطف المهر الصغير، لكن داني أسرع نحوها ليحميها من تحفز الفرس الأم، واستدار يسأل شقيقته:

«أخبريني يا كولي.. هل تحبين المزرعة؟ أعني هل ترغبين في البقاء هنا؟ العمل يستغل أكثر وقتي، ولا أبقى بصحبتك كثيراً، فاذا كنت غير سعيدة...»

قاطعته كولي قائلة:

«أوه... انني أحب العيش هنا. الخالة فيللي طيبة معي، وأشعر بالذنب حيث لا أستطيع أن أرد لها الجميل. لكنني لا أرغب في أن تقوم بعمل يرهقك فأنت تقضي أكثر وقتك في الحظائر أو الاسطبلات».

قال لها بحماسة شديدة:

«هل تعرفين أنني أحب عملي هنا؟ انه مثير للغاية. وهل تتصورين أن فتى المدينة مثلي يحب هذا العمل؟ ولكن هناك الشيء الكثير المفروض عليك معرفته ليكون في وسعك ادارة مزرعة كبيرة مثل هذه المزرعة بنجاح. هل ترغبين في رؤية جياد أخرى؟

أجابت كولي:

«أجل».

وسارا حتى بلغا حظيرة، فأعتلت كولي السياج الى جوار شقيقها وراحت تراقب الجياد تركض هنا وهناك، واقترب واحد منها، وراح يداعب ذراع داني الذي قال:

«هل ترين يا كولي؟ أنه لا يؤذيك، وانما يطلب منك بعض الاهتمام».

وراحت كولي تربت بيدها على رأس مهر صغير، وعندئذ رأت فرساً تدنو منها فأجفلت، وازدادت التصاقاً بشقيقها، لكن الفرس أخذت تدعك ذراعها فصاحت قائلة:

«أنفها ناعم للغاية... مثل الحرير».

واستغرقت كولي و داني في مشاهدة الجياد، وأصبحت واثقة بنفسها، وجريئة، فلم تعد تفزع من تحركاتها. بل كانت تضحك هي وشقيقها عندما ترى الجواد يلاعب زميله، وفي غمرة ضحكها، لم ينتبها الى جيس وهو قادم نحوهما ممتطياً جواده، وفجأة نادى على داني فأجفلت كولي، وسأله:

«لماذا لا تصحب شقيقتك في نزهة على ظهر جواد؟»

تطلع داني الى شقيقته وعيناه تقولان لها بوضوح أن تنسى هذه الفكرة، ولكنها تمتمت باكتئاب:

«أحب ذلك... ولكن...»

ضحك جيس ضحكة دغدغت أوصال كولي، ثم قال:

«أعرف أنك لا تجيدين ركوب الخيل. هل ترغبين في التعلم؟»

انزلقت كولي عن السور، كما فعل شقيقها، ثم قالت:

«بالتأكيد... ولكن»

قال جيس مقترحاً:

« داني يستطيع تعليمك»

صاح داني باصرار واضح:

«أوه... لا تعهد لي بذلك. نفد صبري معها. كانت توافق على أن تتعلم، ولكن موافقتها كانت لا تستغرق من الزمن أكثر من المدة التي أضع فيها السرج على ظهر الجواد ثم تغيّر رأيها»

سألها جيس وهو يتحداها بعينيه الزرقاوين:

«هل تحبين تعلم ركوب الخيل؟»

قالت كولي بصوتٍ يشوبه الغضب من انتقاص شقيقها لعزيمتها:

«بالطبع...»

وعندئذ صاح جيس منادياً:

« غرادي»

واستدار على جواده ليشاهد السائس الذي أخرج جواداً من الأسطبل، وأردف جيس يقول:

«أحضر الجواد ميستي هنا لأن الآنسة ماكغوير ترغب في ركوب جواد رقيق، وابحث لك عن جواد آخر تمتطيه بعد الظهر»

سارعت كولي تقول:

«لا أعني الآن... تماماً...»

ولكن جيس كان قد ترجل عن جواده الأحمر، وأقبل السائس يقود ميستي وراءه، فتناول جيس منه اللجام، ثم حول وجهه نحو كولي قرأت عينيه تتفرسان فيه بوحشية، والصرامة بادية على ملامحه وأخيراً التقط أنفاسه، وسألها:

«ولم ليس الآن؟»

رأى داني المأزق الذي وقعت فيه شقيقته، فقال لها:

«هل هناك مانع من أن تقومي بجولة الآن؟»

قالت كولي:

«لا... ولكنني وعدت خالتي...»

وتعثرت الكلمات على شفتيها بحثاً عن عذر تتخلص به من هذا المأزق، فأكمل جيس كلامها:

«ليست هناك أية مهمة تطلبها منك الآن الخالة»

واستدار نحو الجواد، وراح يربّت على عنقه، ثم أردف يقول:

«انها لا تحبك يا ميستي»

«أوه انه جواد ممتاز، أقصد ليس فيه أي شيء معيب انه مجرد...»

هز جيس رأسه يائساً، أسفاً، قال لها:

«يمكنك أن تخبريه بذلك بنفسك»

بدت كولي الفتاة الحمقاء، اذ تقدمت وهي مسلوبة الارادة نحو الجواد، وراحت تحدق في عينيه الرماديتين، فأشاع الثقة في نفسها ولكي يؤكد لها هذه الثقة تقدم الجواد منها وراح يمسح رأسه في كتفها، فأخذت تربت على رأسه، وظل داني على صمته، بينما قال جيس:

« ميستي يحبك، ستمتطين ظهره، وتقومين بعدة دورات حول الحظيرة»

أحست كولي بالخجل من طول ترددها، فقالت موافقة:

«حسناً...»

وحولت بصرها نحو شقيقها، وأردفت تقول:

«ولكنني لا أريد جمهوراً».

فقال داني متجهماً:

«سأكمل جولتي».

وتحوّل عنها، متخذاً سبيله الى الاسطبل، وهو يلوّح لشقيقته مودعاً، ومتمنياً لها حظاً سعيداً. وعندما غاب داني عن عينيها، استدارت لتسأل جيس:

«والآن... ماذا نحن فاعلان؟»

تناول جيس يدها وراح يعطيها ارشاداته:

«تعالي الى الجانب الأيسر من الجواد».

سألته كولي:

«هل من الضروري أن امتطي الجواد من هذا الجانب؟»

«هذا أفضل... لأن من عادة الجواد أن يدير رأسه الى هذا الجانب ليرى راكبه وهو يقترب منه فاذا ذهبت أنت الى الجانب الآخر لن يتوقع قدومك فيجفل».

قالت كولي:

«اذن... فالانسان لا يحق له أن يمتطي الجواد الا من هذا الجانب».

ابتسم جيس وقال:

«ليس هذا صحيحاً فالهنود الحمر يمتطون جيادهم من الجانب الأيمن. وكانت هذه الصفة المميزة لهم سبباً في انقاذ فصيلة من الفرسان تعرضت لكمين نصبوه لها».

أثارها حديثه، وبدا الاهتمام على وجهها. فسألته:

«هل حقيقة ما تقول؟»

«كان من المفروض أن تلتقي فصيلتان من الفرسان عند نقطة محددة. وحدث أن شاهد كشاف احدى الفصيلتين موقع الفصيلة الأخرى، فاستدار ليقدم تقريره لقائده عن مكانها. ولكنه فوجىء بأحد الجنود يمتطي جواده من الجانب الأيمن وعلى الفور أدرك أن الجنود الحمر أبادوا الفصيلة، وسرقوا ملابسها

العسكرية، وارتدوها ونصبوا كميناً لابادة الفصيلة الأولى. لكن لا أروي لك هذه القصة لأثبط من عزيمتك فتتراجعي عن تعلم ركوب الخيل».

شخصت كولي ببصرها اليه في خجل، ولدهشتها رأته يبتسم في وجهها. وألقى اللجام فوق رأس الجواد، واستدار نحو كولي وأشار الى درجة تعلو الأرض وتقع الى جوار الجواد، وقال لها:

«ارتقي هذه الدرجة، وضعي يدك اليمنى على السرج، وامسكي بيدك اليسرى على اللجام، وتشبثي بها عند عنق الجواد لا تديري ظهرك للجواد، ولكن رأسه نصب عينيك، وكوني يقظة لحركاته. والآن ضعي قدمك اليسرى في الركاب»

امتثلت كولي لارشاداته. لكن توازنها اختلّ قليلاً عندما بدأت تضع قدمها في الركاب. ولحسن حظها لم يكن الجواد ضخم الجسم. وكانت هي فارعة الطول. وقال لها جيس:

«لا عليك. ارفعي جسمك الى أعلى».

واكتشفت كولي أن الأمر ليس سهلاً كما تصورت، اذ لم تكد ترفع جسمها الى منتصف المسافة، حتى فقدت توازنها لتسقط على الأرض - فتطلعت الى جيس لكنه لم يتفوه بكلمة. كررت المحاولة ثانية وفي هذه المرة نجحت وكان جيس يدفعها أثناء الحركة حتى استقر جسمها في النهاية على ظهر الجواد. وأخيراً جلست منتصبة القامة، ويدها اليسرى على السرج ثم راحت تحدق في الأرض تحت حوافر الجواد. لئلا يرى جيس موجات الاضطراب التي كانت تغمر حواسها. وبذلت جهدها لئلا تنم سكناتها عن شيء كهذا. لكنه كان مشغولاً عنها باعداد جواده، ثم أمسك الجواد، وأخذ يسحبه وهو يتحدث اليها بصوت جاد قائلاً:

«سأقود جوادك الى خارج الاسطبل كي تتعادي على حركته. المطلوب منك أن تسترخي، ولا تجعلي جسمك متصلباً، وانما سايري الجواد في حركته، أثناء انطلاقه».

حدقت كولي في نقطة تقع بين أذني الجواد، وحاولت أن تسترخي كما أمرها جيس. وكان الأمر يبدو سهلاً، إلى أن توقف جيس عند باب الاسطبل وفتحه، وقاد الجوادين خارجه، ثم أغلق الباب وراءه، وبعد ذلك اعتلى السرج بسهولة، وسار في محاذاة جواد كولي ورفع يدها عن مقدمة السرج، وعيناه تحدقان فيها فابتلعت ريقها بعصبية، وطلب منها أن تمسك اللجام بيدها اليسرى وأن تدع ذراعها الأخرى تتدلى الى جانبها.

وأراها جيس طريقة استعمال اللجام، كيف تضعه على عنق الجواد لتجعله يدير رأسه ويقفل راجعاً، ثم الطول المطلوب بين يديها وبين فمه، والأهم من ذلك الوسيلة التي تستخدمها كي يتوقف الجواد عن مواصلة السير.

وأخيراً قال لها:

«سنقوم الآن بجولة حول الحظيرة، اضغطي بساقيك وكعبيك على بطن الجواد».

واستجابت لتعليماته قبل أن يبدأ الجواد في السير. وبعد أن قامت بدورات عدة حول الحظيرة شعرت كولي أنها بدأت تحسن قيادة الجواد فاسترخت قليلاً. وهنا قال لها:

«والآن جاء دور التدريب على مرحلة جديدة في قيادة الخيل، وهي أن تكون سرعة الجواد بين المشي والعدو، واضغطي بساقيك على بطن الجواد كما فعلت من قبل».

ودفعت كولي الجواد الى الاسراع في خطواته، لكن جسمها بدأ يختل توازنه فوق ظهر الجواد، وكادت تهوي، فجذبت اللجام لكي يتمهل الجواد في سيره، وقد بدا الفزع في نظراتها عندما تطلعت الى جيس، فقال لها:

«ميلي بجسمك وأنت جالسة فوق السرج، وسايري حركة الجواد الى الأمام والى الخلف، ولا تتحركي ضد حركته. حاولي مرة ثانية».

وراودتها فكرة أن تتوقف عن مواصلة التعلم نتيجة العناء الذي تكابده من التدريب الشاق، لكنها وجدت نفسها قد قطعت شوطاً كبيراً في التعلم، فسارعت الى تثبيت ساقيها على بطن الجواد كما قال لها جيس ونجحت

محاولتها في قيادة الجواد الى حد ما، وان كان توازنها ما زال يختل قليلاً، ولكن ليس بالصورة التي كانت عليها في بداية التدريب. وقامت بدورات أخرى، وكان جيس حريصاً على أن يكون على مقربة منها، وأخيراً أمرها قائلاً:

«الآن، فلنبدأ التدريب على الجواد وهو يخب في خطواته».

ودفعت كولي الجواد حتى باتت خطواته أسرع، وصاحت فرحة:

«هذا سهل للغاية».

أوقف جيس جواده في منتصف الحظيرة، وراح يراقبها وهي تقوم بالدورات، وأخيراً طلب منها أن تأتي اليه، فيممت رأس جوادها وسارت به الى حيث يقف جيس الذي قال لها:

«يكفيك ما تلقيت من تدريب اليوم، وستصبحين أمهر فارسة بمزيد من التدريب. سأخبر السياس بأن ميستي أصبح جوادك، ويمكنك تمطيه في أي وقت تشائين، وتطوفين به هنا في المزرعة خلال الاسبوع المقبل أو حتى تعتادي على قيادته بسهولة».

ربتت كولي بيدها على عنق الجواد وهي في أوج سعادتها، ثم صاحت قائلة:

«أشكرك».

ثم انزلقت عن ظهر الجواد، وقادته الى السور وجيس يتابعها، فاستطردت تقول له:

«لم أفكر يوماً أنني سأتمكن ركوب الخيل. كنت دائماً أصاب بهلع، لكنك وهبتني الفرصة».

فقال جيس وهو يستند الى السور:

«هذا هو الرأي السائد...»

قالت كولي:

«ما زلت أشكرك.. لأنك علمتني السباحة، ثم دربتني الآن على ركوب الخيل...»

وتوقفت عن مواصلة الحديث، وتطلعت اليه وفي نظراتها احساس مفاجئ،

بالذنب، ثم قالت له:

«أعتذر لك عما بدر مني هذا الصباح عندما كنا في حوض السباحة ...»

قال لها جيس ببرود، وهو يشيح بوجهه عنها، فاستقر بصرها على ندبته:

«لم يحدث شيء أبداً... إلا ما دار في خيال توني».

قالت كولي وهي تطرق ببصرها نحو حذائها الذي غطاه الوحل:

«لا أقصد ذلك، وإنما أرجو ألا تكون الأمور قد ساءت بالنسبة إليك».

سألها وهو يرمقها بطرف عينه:

«كيف تتصورين ذلك؟»

تضرّج وجهها بحمرة الخجل، وقالت له:

«حسناً... أعرف أنك تعيش هنا في المزرعة وسط ظروف حرجة، ولا أدري السبب، ولا أريد أن أفعل شيئاً قد يسيء إليك. كنت رائعاً في سلوكك معي، ولا أريد أن تواجه مزيداً من المتاعب».

حدق جيس في وجهها، وعلى وجهه علامات التجهم، وعندما رأى القلق بادياً في عينيها، أسرع ورسم ابتسامة على شفتيه وقال لها:

«لن أواجه شيئاً، لا تقلقي عليّ يا زهرتي الصفراء...»

ابتسمت بسرورها، وقالت له:

«أنت تعرف أنك مدرس جيد للغاية، ويمكن أن أتخيلك وأنت تدرّس الصغار».

وراح خيالها يصوّر لها صوراً لأولاد صغار ذوي شعور سوداء وعيون زرقاء ثم استيقظت من أحلامها عندما سمعت صوته يقول لها:

«لن يكون لي أولاد أو بنات».

وكانت عبارته يشوبها البرود والقسوة، وندبته لفتتها من جديد قرأت نظراته مليئة بالسخرية والاحتقار وبعد هنيهة واصل كلامه قائلاً:

«لأنني ببساطة لن تكون لي زوجة».

انتاب كولي الخوف، عندما شاهدت علامات الغضب والبرود على وجهه.

فسألته:

«ولماذا لا تتزوج؟»

قال جيس بمرارة:

«لأنني لا أملك شيئاً أستطيع أن أقدمه لهذه الزوجة، لا البيت ولا المستقبل ولا الميراث للأولاد، لا شيء أبداً».

وحدقت كولي في وجنته حيث رأت الندبة تعكس نبض ثورته فرفع يده ولمسها بخفة بأطراف أصابعه، وقال ساخراً:

«لديّ هذه الندبة أقدمها لزوجتي...»

ومضى وتركها في صمت... وكلماته تلسعها.

٥ ـ الثور قتل اخاه

راحت «كولي» تضرب بذراعها صفحة الماء، وتستمتع ببرودته تحت دفء شمس الأصيل وهي تشكر من أعماقها جيس لأنه أتاح لها الفرصة لكي تسبح وحدها بشرط ألا تتوغل في المنطقة العميقة. كما أصبحت تمتطي جوادها «ميستي» وحدها بشرط ألا تتجاوز الأراضي المحيطة بالحظيرة.

ولكنها أحست أن «جيس» أصبح بعيداً، متنائياً عنها منذ الدرس الأول في ركوب الخيل، وكأنها غريبة عنه وفكرت «كولي» في أن تكون ثرثرتها سبب تباعده، وكان قد سافر أمس الى مدينة «سان أنطوان» وعرفت بنبأ سفره عندما سألت عنه وهي تجلس الى مائدة العشاء. كان في وسعه على الأقل أن يقول لها الى اللقاء.

وشعرت «كولي» بالكآبة، والألم وهي تغادر حوض السباحة، وطفقت تجفف ذراعيها وساقيها. انها فتاة حساسة، وكم من المرات أخبرها «جيس» بذلك. حسناً، انه شخص غير حساس. ولم يلبث أن انتشلها من أفكارها صوت «توني» وهو يقول:

«مرحباً أيتها الفتاة الذهبية، ماذا تفعلين هنا وحدك؟ ألا تعرفين أن وجود شخصين معاً يصنع صحبة جميلة».

«الخالة والعم يسترخيان الآن، و «داني» يقوم بجولة في سيارته «وجيس» مسافر وأنا ضقت ذرعاً بالجلوس على المقعد في هذا الجو الحار. وأنت، أين كنت؟»

سألها «توني» وهو يتناول المنشفة من يديها ليساعدها في التجفيف: «هل تعتقدين أنني كنت أبحث عنك؟ كنت أظن أنك تقومين بجولة على ظهر جوادك».

ناولها المنشفة، فلمست راحتاه، كتفيها بينما كانت تقول له:

«الجو حار للغاية، ولا يسمح بركوب الخيل. ولماذا كنت ترغب في رؤيتي؟»

«داني» يحتاج الى قطعة غيار لسيارته وتطوعت بالتوجه الى الحديقة لاحضارها له. فهل ترغبين في الذهاب معي؟»

ابتسمت «كولي» وقالت له:

«أحب أن أذهب معك، انتظر قليلاً لأستبدل ملابسي».

قال لها «توني» وهي تتوجه مسرعة نحو البيت:

«لا تتأخري أيتها الأميرة. احب أن تكوني كلك... ملكاً لي».

أسرعت «كولي» باستبدال ثيابها فارتدت ثوباً قطنياً، ووضعت لمسات من مستحضرات التجميل على وجهها، ثم مشطت شعرها في موجات جذابة، وبعد ذلك أخذت تهبط السلم لمقابلة «توني». وقد أحست باهتمامه الزائد. انه منذ شاهدها مع «جيس» في حوض السباحة يراقبها وفي عينيه بريق جعلها تزداد وعياً به، أكثر من وعيها بأنه أبن أخت «بن».

قدم لها يده، وقادها عبر الباب، والى خارج البيت ثم قال لها:

«القافلة الذهبية في انتظارك يا «ساندريلا».

ابتسمت له بخفر وحياء، وهو يفتح لها سيارة «الكاديلاك» وعاونها على الجلوس في المقعد وشعرت فجأة بينابيع الثقة تتفجر في أعماقها، وأخذت تستمتع بنظرات الاطراء، التي تبدو في عينيه، وراح يجاذبها أطراف الحديث، ويحاورها بدعاباته التي جعلتها تنفجر ضاحكة، فلم تشعر بالسرعة الرهيبة التي كان يقود بها السيارة، وفجأة وجدته يقف أمام أحد المتاجر، واستأذنها في الغياب لحظة، فأراحت «كولي» رأسها على مسند المقعد، وأخذت تحدق عبر النافذة، وتحلم

وتتساءل: ترى أين جيس الآن؟ وماذا يفعل؟

وأفاقت من أحلامها عندما فتح توني باب السيارة، وألقى طرداً صغيراً على المقعد الخلفي قبل أن يجلس وراء عجلة القيادة.

قال لها وهو يدير محرك السيارة وينطلق بها:

«قلت لك انني لن أغيب عنك طويلاً... هيا بنا نتناول مشروباً مثلجاً».

وافقت كولي قائلة:

«عظيم جداً».

وعندما وقف توني أمام أحد الأكشاك التي تبيع المثلجات، طلب من الضيفة مشروباً مثلجاً، ثم تحول نحو كولي وسألها:

«فيم كنت تفكرين... منذ دقيقة؟»

«متى؟»

«عندما جلست وراء عجلة القيادة. كانت عيناك حالمتين! هل أتصور أنك تفكرين بي؟»

داعبته كولي قائلة:

«أنت مخطئ، في الحقيقة كنت أفكر في جيس».

انعقدت تقطيبة فوق جبينه غير مصدق أذنيه، وسألها:

«تقولين جيس! فيم كنت تفكرين بشأنه؟»

دهشت كولي من نبرته المريرة، فأجابت متلعثمة:

«أنا... أنا... أعلم أنه ذهب... الى مدينة سان أنطوان ـ كنت أتساءل فقط الى أي مكان ذهب؟ عشنا في تلك المدينة داني وأنا... هذا كل ما في الأمر».

أجاب توني بنبرة اعتذار:

«حقاً... نسيت ذلك».

ثم تطلع الى ساعته، وأردف يقول:

«أتصور أنه مستلق الآن على حافة حوض السباحة، في صحبة فتاة ساحرة ترتدي البيكيني».

سألته كولي، وهي تتصور منظر جيس بصحبة فتاة:

«هل له صديقة؟»

أجاب توني ماكراً:

«أظن أن لديه العديد من الفتيات. بالتأكيد انك لا تظنين أنه راهب، أليس كذلك يا كولي؟»

أجابت:

«بالطبع لا...»

قال:

«كولي... أحياناً، تبدو السذاجة على وجهك، حتى أكاد لا أصدق ذلك».

عندئذ احمرت وجنتاها، فاقترب منها وأمسك بيدها ثم قال:

«كم أنت جميلة مثيرة».

أزعجتها النظرات التي ارتسمت في عينيه، وأسعدها وصول الضيفة بالمشروبات. فقد اضطر توني أن يترك يدها، وعندما تناولت الكوب منه ابتعدت حتى التصقت بالباب.

قال توني ساخراً:

«هل تسببت في مضايقتك يا أميرتي؟»

قالت كولي بكبرياء:

«كلا، لا أدري لماذا تحاولون جميعاً أن تضعوني في صندوق مكتوب عليه «قابل للكسر»! لقد بلغت العشرين».

وفجأة لاحت في مخيلتها صورة تلك الليلة التي حاولت فيها أن ـ تثبت لجيس أنها بلغت مرحلة المرأة الناضجة. وأفاقت على صوت توني يقول:

«بالتأكيد، انك لا تستطيعين اتهامي بأنني أتجاهل سنك».

أجابت غاضبة:

«بل انني أتهمك، فأنت لا تختلف عن الآخرين، انك تعاملني كطفلة توجه اليها الأوامر».

هز توني رأسه قائلاً:

«وكيف أستقر رأيك على ذلك؟»

مالت كولي بجسمها نحوه، وقالت:

«لمجرد السرية التامة التي تكتنف أمر جيس - كل شخص يعرف ماذا حدث وسبب الندبة الموجودة على وجهه، كل شخص يعرف... إلا أنا. وكل مرة أسأل فيها عن الموضوع، يسارعون الى التربيت على رأسي، ويطلبون مني أن أذهب لألهو مع نفسي كأنني طفلة صغيرة».

انفجر توني ضاحكاً لكلماتها الغاضبة وقال:

«كيف يجرؤ أحدهم أن يفعل ذلك معك؟ فالقصة معروفة للجميع».

سألته:

«اذن فقد تسنى لأخي داني أن يعرف القصة؟»

«أجل يا أميرتي... أنت الآن واحدة من أفراد الأسرة... ومن حقك أن تعرفي ماذا حدث!»

سألته كولي لاهثة الأنفاس:

«ستخبرني يا توني؟»

خيّم عليه الصمت برهة، ثم قال باهتياج:

«لا أدري حقاً كيف أبدأ القصة. كان ريك يكبر أخاه جيس بعامين وأعتقد أنه كان يحوز على اعجابك لو التقيت به، فهو شخص مجنون على استعداد لأن يفعل أي شيء... وكان ريك الشخص المفضل لدى العم بن الذي كان يوافق دائماً على كل ما يفعله ريك أو يقوله. وذات ليلة جاء ريك متأخراً ومنتعشاً، وتوجه الى الحظيرة حيث يوجد الثور الضخم ساتان وراح يناطحه كالبهلوان حتى أثاره بحركاته فألقى به أرضاً. وقال جيس انه سمع خوار الثور، فأسرع ليسحب ريك من بين حوافره بعدما طعنه الثور طعنة نجلاء، كذلك لم يسلم جيس من هجمات الثور الذي أصابه في وجنته.

لم يكن العم بن قد أصابه الشلل في ذلك الوقت، رأيته يجلس على

الأرض، ويضم ريك بين ذراعيه، والدموع تنهمر على وجنتيه ولن أنسى صورته وهو يبكي ويصرخ كالطفل. ولا أعرف أين كان جيس في تلك اللحظة، ربما كان يطلب الاسعاف. وكان ريك ما زال على قيد الحياة، والعم يصرخ في وجه جيس وهو في السيارة وظل يهذي و جيس جامد القسمات. وقد مات ريك في غرفة العمليات.

صمت توني قليلاً، ثم استطرد يقول:

«اقتيد جيس للتحقيق معه، فقال، انه لم يستطع أن ينقذ ريك من براثن الثور. لكن بن راح يصرخ ويتهمه بأنه كاذب وأنه ترك أخاه يموت لأنه يعرف أن ريك سوف يرث المزرعة. ولم يتفوه جيس بكلمة، وترك الرجل الكهل يقول له:

«أنت ستحمل علامة قايين على وجهك طوال حياتك وبعدها سقط العم بن مشلولاً، ينتقل من مكان الى آخر على مقعد متحرك».

وخيّم الصمت على توني الذي تطلع الى كولي فرأى وجهها شاحباً فاستدعى المضيفة لتحمل الكريمين، ثم وجه حديثه الى كولي قائلاً:

«الآن وقد عرفت القصة، فهل أنت سعيدة؟»

ولم تجب كولي ولم تفتح فمها طوال الطريق وهما عائدان الى البيت، فقد ظلت تحملق عبر النافذة. وعندما بلغا المزرعة انسلت خارجة من السيارة، وأسرعت تتخذ طريقها نحو غرفتها، واستلقت على فراشها تحدق في الزهور المتألقة المرسومة على الجدران.

ظل الجواد وفارسه صامتين داخل الحظيرة، وراحا يحدقان في الظلال التي تقع عند الأفق البعيد، وأخذ الجواد يصهل يائساً وتنهدت كولي كأنها تتعاطف معه. وراحت تربت على عنقه بحنان وتحدثه.

«كم أود أن انطلق بك! ولكنك تعرف ما قاله جيس يا ميستي».

وكانت كولي تشعر بالأسى لقصة وفاة ريك التي رواها لها توني منذ ثلاثة أيام، وكان جيس قد عاد من رحلته الى سان أنطوان، لكن كولي حرصت على ألا تنفرد به. كانت تدرك تماماً أن الحادثة لم تكن هي الوصمة التي ارتبطت بشخصيته، وانما القسوة هي التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من طبيعته. وأفاقت من أفكارها على صوت يقول:

«مرحباً الى أين ستمضين بجوادك يا أميرتي الصغيرة؟»

واستدارت كولي برأسها لترى توني يقود جواداً نحو بوابة الحظيرة، فقالت:

«محظور عليّ أن أبتعد عن الحظيرة، ولكن، أليس من المفروض أن تكون الآن في عملك؟»

وبالرغم من أنها كانت تشعر برغبة في القيام بجولة فوق جوادها الا أن هذه الرغبة أنطفأت، لأنها لا تحب أن ينطلق معها توني، أما هو فقد قال لها ساخراً:

«هل هي واحدة من تعليمات جيس، أو أنك لا تشعرين بالأمن الا في صحبته؟»

سألته كولي معترضة:

«لماذا تظن ذلك؟ جيس لا يريد أن أنطلق بالجواد وحدي، وأنا لا أبغي أن أعوقك عن مواصلة عملك».

قال وهو يزيح المزلاج ليفتح الباب:

«انك لن تعوقيني عن عملي... فقد طلب مني جيس أن أفحص البئر في القطاع الشمالي. انها واحدة من تعاليمه الحمقاء. وهكذا يمكنك أن تصحبيني في جولتي».

وامتطى جواده، وسار به حتى أصبح في محاذاة كولي، التي سألته:

«لماذا تقول ذلك؟»

قال مزمجراً:

«الأمطار هطلت بغزارة، ولدينا ما يزيد عن حاجتنا لنروي جيادنا هنالك، ولكنه

يتعمد ارسالي».

ولم تكن كولي في حالة تسمح لها بمناقشته بشأن جيس، فدفعت جوادها الى العدو، وبادر توني الى دفع جواده بدوره في محاذاتها فقالت له:

«كنت أنا وجوادي ميستي نرغب في أن نقوم بجولة».

فقاطعها قائلاً وهو يحدق بعينيه في اعجاب:

«وأنا سعيد أن أتاح جيس لي هذه الجولة معك، وأن أحقق أمنيتي بصحبتك، وأرجو أن تتحقق أمنيتك بهذه الجولة».

وطفقت كولي تجيل بصرها حولها باهتمام زائد، فقد كانت هذه أول مرة تبتعد فيها عن المزرعة، وراحت تطوي الأرض نحو التلال الجميلة، والجبال النائية. وبعدما قطعا عدة أميال، بدأ توني يبطيء من سير جواده، فشدت كولي اللجام لتكبح جماح جوادها عن الانطلاق، بينما كانت عيناها تتألقان بالسرور والبهجة، وصاحت قائلة:

«ما أحلى هذه الرحلة انك محظوظ لأن تقوم بالجولة وحدك».

أوقف جواده عند واد صغير، وهو يقول لها:

«استمتعت بها اليوم فقط لكنها كانت مملة في الأيام السابقة».

وكان الوادي ينحدر ليكشف عن مرعى، يشقه مجرى يتلألأ بالماء الفضي، ولاح قطيع من الجياد بين الشائش الكثيفة، وعند مشارف الوادي، وقفا وقال توني لها:

«لدينا أحسن سلالة للجياد تدر أغلى الأثمان عند بيعها».

أخذت كولي تراقب الماوية وهي تقترب منها، بينما أخذت الجياد تمرح في الجماعات شتى، أخذ توني يروي لها تاريخها فقالت له كولي:

«أنت محظوظ لأنك تعرف كل هذا، متى جئت تقيم هنا؟»

قال توني وهما يشرعان في السير ثانية:

«جئت منذ سبع سنوات بعد وفاة والدي. كنت حينئذ في السابعة عشرة من

عمري. وكانت أمي شقيقة بن... مسكين أبي عمل في هذه المزرعة، وظن أن زواجه من شقيقة بن سيحقق له كسباً كبيراً، لكن للأسف لم يكن يعرف بن جيداً، أمي امرأة سليطة اللسان، دائماً تذكر أبي بما فعلته من أجله، وكانت تتهمه بأنه السبب في هذه الحياة البائسة التي كنا نحياها، وكنت في الثانية عشرة من عمري عندما ثارت ثورتها الغاضبة التي أودت بحياتها، ولكن أبي كان يبحث عن الحياة السهلة، فتورط في تهريب المخدرات عبر الحدود، وأصيب بالرصاص في معركة دارت بينه وبين الشرطة في احدى محاولاته، وعلى فراش الموت أفضى لي بأنني أحد ورثة المزرعة وعليّ أن اطالب بنصيبي فيها. انها قصة محزنة. أليس كذلك؟ لقد أخبرني داني بأن قصة حياتكما ليست مبهجة، أننا متشابهان يا كولي.

وأحست كولي بحشرجة في حلقها، منعتها من الاجابة، فبالرغم من بؤس توني لكنه يبدو دائماً خليّ البال وهو يحاول مداعبتها والترويح عنها، ولكنها تسيء الظن به، يساعدها على أن تحتل مكانها كواحدة من أفراد الأسرة، وفي ذلك الوقت ترقرقت الدموع في عينيها، لكنها تماسكت حتى لا يرى توني على وجهها امارات الشفقة التي تحس بها نحوه، شغلها ذلك عن متابعة السعادة التي تراقصت في عينيه وهو يتأمل وجهها ويبادرها قائلاً:

« كولي، انظري»

وتلفتت حولها في دهشة، فرأت مجموعة الجياد تركض هنا وهناك، وعلى البعد أليست مبان صغيرة وراءها التلال والجبال الشاهقة، كما شاهدت قطيعاً من الماشية يتجول في المراعي التي تقع بين المزرعة والوادي.

قال توني بهدوء:

«فقد أراضي سلاش أس مسافات بعيدة، ويقولون ان مساحتها تزيد على ستين ميلاً مربعاً، ويقدر ثمنها بالملايين. والآن يخيل اليّ أنها ستصبح ملكي... يوماً ما».

صمت قليلاً وظل يتأمل وجهها الفترة ثم استطرد يقول:

«أنت تعرفين أن بن ازداد ولعاً بك خلال هذه الأسابيع القليلة وأخير الحالة بأنك تتمتعين بالعزيمة والكبرياء. وأشعر بأن واجبي أن أحذرك من أن جيس يعرف بحب بن لك، ويحاول أن يستخدم من هذا الموقف سلاحاً لأبدو أمامك في صورة سيئة، فيعهد اليّ القيام بأعمال مهينة، كاليوم، ثم يخبر بن بأنني غير جدير بثقته. انه يبغي أن يفوز بالمزرعة بأية وسيلة ممكنة.

وتوقف توني عن مواصلة السير، وأدار وجهه المتجهم نحو التلال وفي هذه اللحظة تذكرت كولي كلمات جيس التي وجهها الى بن عندما قال له ان توني سيحاول تدمير كل شيء... في فترة لا تتجاوز أسبوعاً واحداً.

وأخيراً سألته كولي بتردد واضح

«لو كان ما قلته لي عن وفاة ريك صحيحاً، ألا تكون المزرعة من نصيبه؟»

وان صمت طويل وبدا توني كأنه يختار كلماته قبل أن يجيب. وأخيراً قال لها:

«لا أحد رأى ما حدث.. ولا نعرف شيئاً الا ما أخبرنا به جيس والصرخات التي أطلقها ريك وهو يطلب من أخيه أن يمد له يد المساعدة».

«ماذا كان يحدث لو أن أحداً غير جيس كان هناك في تلك اللحظة؟»

سألها توني بدوره:

«وماذا عن ثور ثمنه ثلاثة آلاف جنيه أشاع الجمود في أوصال جيس وأثار الفزع في نفسه، فشل حركته؟»

فسألته كولي لاهثة الأنفاس:

«هل هذا ما تعتقده؟»

أجاب توني بهدوء:

«هذا محتمل... بن يعتقد أن جيس يريد أن يفوز بالمزرعة، ومن المحتمل أن تكون ملكاً لي».

وابتسم ابتسامة كشفت عن أسنانه البيضاء، ثم استطرد يقول:

«ما الذي جعلنا نتحدث عن موضوع كئيب في حين أننا ما جئنا الى هنا الا

للاستمتاع بنزهة خلوية؟ سأطلب منك المكوث هنا، بينما أتوجه الى التل وأفحص آلة ضخ الماء».

هزت كولي رأسها موافقة، اذ كانت في أمسّ الحاجة الى فسحة من الوقت للتفكير في كل ما قاله توني، وابتسمت له وراحت تلوّح له بيدها وهو يسعى بجواده نحو التل، وراحت نظراتها تتابعه حتى اختفى عن بصرها، فأطلقت تنهيدة مكتومة، وترجلت عن جوادها، وأرخت عنانه، ثم ألقت بجسمها على المنحدر ودفعت بجذعها الى الوراء، وراحت تتأمل السماء الزرقاء.

وتساءلت كيف أنه لم يخطر ببالها أن خشونة توني نابعة من بؤس طفولته، وتذكرت أن خطوط المرارة نفسها كانت ترتسم على وجه داني قبل أن يأتيا الى المزرعة. الظروف التي ألمّت بحياة توني المبكرة تشبه تماماً الظروف التي مرت بها وبأخيها، وليتها ما تبادلت معه الحديث عن جيس لأن كثيراً مما قاله توني يبدو منطقياً، خاصة أنها رأت الجهامة والقسوة على وجهه. وحاولت كولي أن تدور بجسمها لتستريح على جنبها، وكأنها تبغي أن تدير ظهرها لأفكارها.

وفجأة جذب انتباهها صوت خطوات بعيدة، اذ تعثرت حوافر جوادها ميستي في اللجام، فانتفضت كولي واقفة «أوه... ميستي... أنتي آسفة ـ كان عليّ أن أعرف أنك ستتعثر في اللجام. سأعقده فوق السرج».

وفجأة هز الجواد رأسه، وانطلق يهبط المنحدر، فصاحت كولي:

«الى أين أنت ذاهب يا ميستي عد الى هنا».

وراحت كولي تجري وراء الجواد، علها تمسك به، ولكنها لم تكد تقطع نصف المسافة حتى رأته يتوقف قرب قطيع الجياد، وحاولت أن تدنو منه، لكن صهيله أفزعها بعدما كشر عن أنيابه. فأدركت انه لا يريد منها أن تقترب من القطيع الذي يلوذ بحمايته، وتلفتت حولها في يأس فرأت صفاً من الأشجار يرتفع عالياً في الجانب المواجه لها من الوادي والى يمينها صخرة ضخمة. ووجدت أنه من الأفضل لها من تعتليها حتى تأمن على سلامتها من جوادها الغاضب، اذ أحست

من وقع حوافره وهي تدك الأرض ونظراته النارية رغبته في مطاردتها. وبصعوبة بالغة نجحت كولي في أن تعتلي الصخرة، وراحت تنادي:

«توني... ساعدني...»

وراحت تجول ببصرها في الوادي وهي تأمل في ظهور توني وانطلقت تصرخ لكن صرخاتها تبددت وتحولت الى نحيب مكتوم. فبدأت تهدئ من روع نفسها وتدفع جسمها الى الاسترخاء، وتغري عينيها بالتمتع بالمناظر الطبيعية. وما كان عليها بعد ذلك أن تفعل شيئاً سوى الانتظار.

وتناهى الى سمعها وقع حوافر جواد آتياً من ناحية التل. وبعد عدة ثوان لاح عند قمته الجواد وفوقه فارسه. فالتقطت كولي أنفاسها وحدقت في الراكب. وبالرغم من بعد المسافة عرفت من طريقة جلسته الهادئة والثقة المفرطة في قيادة جواده الأحمر... أنه جيس! صاحت كولي عالياً وهي تلوح له بيدها بجنون:

«جيس... جيس!»

وفكرت... ماذا تفعل لو أنه لم يبصرها؟

وفزعت من الفكرة واعترى الشلل أوتار صوتها. وما كان منها الا أن وقفت على الصخرة وكررت صيحاتها:

«أنا هنا... أنا هنا... فوق الصخرة».

وفجأة اختل توازنها فانزلقت الصخرة، وأطلقت صرخة قصيرة، وهي تحاول أن تتشبث بحافتها بكل ما أوتيت من قوة وأخيراً نجحت في أن تستوي بقامتها فوق الصخرة بعدما تمزقت بلوزتها، فأطلقت لدموعها العنان وأصابت تجري فوق خديها، وتطلعت بعينيها المغرورقتين نحو التل حيث شاهدت جيس، ولكنها وجدته اختفى.

وأنصتت فسمعت ضجيجاً خافتاً. وأدركت أن صوت هذا الايقاع الذي كانت تسمعه لم يكن صادراً عن قلبها وانما هو وقع حوافر جواد. فاستدارت لترى توني يقطع المنحدر بجواده، وهو يلوح بحبل في يده ليطرد قطيع الجياد الذي ابتعد سريعاً. وما كاد يقترب من قاعدة الصخرة التي تقف عليها كولي حتى ترجل

عن جواده، واندفع لمساعدتها على الهبوط. وكان وجهه شاحباً كوجهها، وإن كان الانتصار بادياً على ملامحه. وسألها وهو يبتسم:

«هل أنت بخير؟»

هزت رأسها بالايجاب، وإن كان صوتها قد توقف عن الانطلاق من حلقها، وتطلعت ببصرها الى التل حيث كان يقف جيس منذ لحظات لكن لم تظهر أية علامة تشير الى وجوده. فتساءلت: «هل كنت أتوهم وجوده؟» وثابت الى رشدها على صوت توني وأحست بيديه ترتاحان على ذراعيها وهو يقول لها:

«كنت أخشى أن يحدث أمر سيء لك... أين جوادك؟»

قالت كولي بصوت مضطرب:

«انطلق مع القطيع... آه... توني... أنني سعيدة لرؤيتك».

«استندي بظهرك الى الصخرة، واسترخي. لا تقلقي. سريعاً سوف أمسك بجوادك. أما الآن فدعيني ألقي نظرة على يديك».

وامتثلت كولي لأوامره، ونظرت اليه وهو يمسح راحتيها بمنديله ثم قال لها وهو يتطلع الى عينيها:

«سنغسلهما بالماء عندما نعود الى المزرعة».

وسقطت نظراتها على يديها، ولكنها عندما تطلعت الى بلوزتها الممزقة، سارعت برفع يديها لتغطي صدرها العاري، ثم رفعت رأسها وقد تورد وجهها بحمرة الخجل.

تلألأت عينا توني سروراً وهو يلمس وجنتها بيده، ثم قال:

«كم هو جميل... منظر الفتاة الخجول».

وتغيرت نبرة صوته عندما انزلقت يداه لتستقر على جنبها، فسألها بشغف:

«أليس من المعتاد أن تعانق السيدة فارسها؟»

وبينما كان وجهه يقترب منها، لاحت أمام عينيها صورة قبيحة مرت بها ذات يوم، وكانت صورة كارل. أما الآن فانها ترى أمامها توني وقد انتابها شعور الرفض، فصاحت بحرقة وهي تتخلص من راحته:

«كلا»

صاح مشدوهاً غير مصدق عينيه وأذنيه:

«لن أغضبك؟»

قالت له والكلمات تنطلق من جوفها في نبرة يشوبها التوتر والخوف:

«آسفة يا توني لا أقصد أن.. أعتقد أنني ما زلت متوترة الأعصاب».

قال بصورة يتسم بالجمود:

«بالطبع، من الأفضل أن نعود الى البيت».

استدار وفي قبضته اللجام، ثم امتطى جواده، وقال لها وهو يمد يده:

«يمكنك أن تجلسي أمامي...»

حاولت كولي أن تلملم أطراف بلوزتها الممزقة في قبضة، بيدها بينما مدت يدها الأخرى الى يد توني الذي رفعها عالياً حتى استقرت على ظهر الجواد، والتفت ذراعه حول وسطها قريباً من بلوزتها الممزقة، وحاولت أن تصيح احتجاجاً على التفاف ذراعه لكن الجواد كان قد انطلق ليتخذ سبيله عائداً الى البيت.

٦ ـ الحوار القاسي

لم تكد كولي وتوني يبعدان حوالي عشرين ياردة عن الوادي الذي يفضي الى الجدول، حتى لاح جيس وهو يقود الجواد الهارب.

اذن لقد شاهدته فعلاً على قمة التل، ولم تكذب عيناها! وكانت عيناه يتطاير منهما الشرر عندما وقفا على كولي وفي وجهه سحابة غضب. فتألقت الندبة التي تشق وجنته. ووقع بصره على بلوزتها الممزقة، فقال لها:

«رأيت توني ينقذك في لمح البصر، وهذا واضح من بلوزتك».

«انزلقت وأنا أتشبث بالصخرة...»

قال جيس بصوت ساخر:

«يا له من مكان مريح!»

«جوادك تدرب على أن يبقى في مكانه عندما يكون اللجام مشدوداً الى وتد في الأرض لأن وضع اللجام على السرج يتيح له فرصة الفرار».

قال توني:

«كولي... لم تركبه...»

فقاطعه جيس بحدة، قائلاً:

«كفى...»

وشعرت كولي برفيقها توني يتجمد وهو جالس وراءها على ظهر الجواد، قبل أن يترجل عنه وقد قطب حاجبيه.

سأله جيس:

«هل كانت المضخة دائرة؟»

«أجل... ماذا كنت تفعل؟ هل جئت لتتأكد من قيامي بالمهمة؟»

قال جيس وهو يتجاهل سؤاله.

«هل وضعت السولار فيها؟»

«لا...»

«اذن... اذهب وأفعل ما أمرتك به... وأنت يا كولي انزلي وتعالي امتطي جوادك، وارتدي هذا المعطف...»

قال توني مزمجراً:

«يمكنك أن تذهب أنت، أما أنا فسأصحب كولي الى المزرعة».

قال جيس باصرار:

«ستمتثل لأمري»

انزلقت كولي عن ظهر الجواد وأخذت المعطف من يد جيس وارتدته، بينما قال توني:

«انك لست صاحب اليد العليا في اصدار الأوامر هنا».

قال جيس:

«ولكنني أصدرت لك هذا الأمر...»

امتطى توني جواده وهو يرتجف غضباً ولكزه بمهارة نحو الوادي. لكنه قبل أن يرحل، أدار وجهه الى جيس وقال له بيأس:

«سيأتي اليوم الذي أصدر لك فيه أوامري»

قال جيس بحدة:

«أنت وأنا نعرف تماماً ماذا سيحدث لهذه المزرعة. ستبادر أنت الى بيعها لأول مشتر، وهذا ما سوف أمنعه».

أخذ جواد توني ينهب الأرض بينا استدار جيس برأسه ناظراً الى كولي التي لم تستطع أن تواجه نظراته القاسية. واضطرت الى ركوب جوادها. فقال لها:

«هل تحتاجين الى مساعدة؟»

أجابت وهي ترفع أكمام المعطف عالياً حتى تتمكن من اعتلاء ظهر الجواد:

«انني أستطيع الركوب».

ودفع جيس جواده الى السير عندما اعتلت كولي جوادها بينا راحت تسعى وراءه. وأفكارها تتساءل: «لماذا لم يهبط جيس عن التل لمساعدتها؟» كانت تعرف الاجابة مسبقاً. اذ أوضح لها توني أن جيس يتصرف ببرود في بعض المواقف. وهي لا تستطيع أن تنسى ما فعله ازاء ريك. وأفاقت من أفكارها على صوته يقول لها:

«سأطلب من أحد الصبية رعاية جوادك. وأذهبي الى المنزل وستهتم مالني بأمر يديك».

تطلعت كولي نحوه باكتئاب. قبل أن تترجل، وتلقي باللجام فوق السور، وتهرع الى البيت، ولم تقابل أحداً في الصالة. وعلى الفور ارتقت درجات السلم الى غرفتها. وانتزعت المعطف وطرحته، ثم خلعت بلوزتها وألقت بها في سلة الملابس المتسخة وارتدت أخرى نظيفة. ولم تشعر بأدنى رغبة في أن تستعيد أمام عينيها ما حدث. اذ كانت تخجل من التفكير في سلوك جيس وبذلت جهدها لكي تخفف من شأن تصرفاته. ثم وهي في طريقها الى الطابق الأول تركت المعطف في غرفة جيس مدركة أن هذا سيوفر عليها فرصة لقائه.

وفي اليوم التالي، كانت كولي تطوف بصحبة جوادها ميستي حول المزرعة. عندما برز أمامها فجأة جيس وهو يمتطي جواده. كانت مستغرقة في أفكارها حول أحداث الأمس. ولم تلحظ وجوده أمامها. فسألها:

«كيف حال يديك؟»

أجابت كولي وهي تنظر اليها بلا وعي:

«بخير...»

أمرها قائلاً:

«هيا بنا... سنقوم بجولة فوق الجياد».

امتثلت كولي لطلبه وامتطت جوادها. وسارت مسلوبة الارادة وراءه وهو يتجه نحو المراعي. ورأته يبتسم لها ابتسامة ممزوجة بمرارة، ثم بدأ جواده في الركض، وأدركت أنه يتجه بها الى الوادي. وسرعان ما رأت أمامها الجدول. لكن قبل أن يتجها اليه، مال جيس وسار الى اليسار. فتطلعت اليه بعصبية، وتاقت نفسها الى أن تسأله عن وجهته، لكنها لم تقو على أن تكسر حدة الصمت الذي ران عليهما وفي اللحظة التالية راحا يرتقيان تلة.

وعندما بلغا قمتها، أوقف جيس جواده وترجل، وأشار الى كولي بأن تترجل بدورها فامتثلت له بلا تردد، ووقفت بلا حراك وبهدوء أجلسها على الحشائش واطمأن الى جوادها جالساً قربها. وابتلعت كولي ريقها، فقد كان عليها أن تقول شيئاً، وكان هو بدوره يعرف أنها تتساءل لماذا لم يسارع بالأمس الى إنقاذها؟ وبالرغم من أن توني يتهم جيس بالجبن الا أنها ترفض أن توجه اليه هذا الاتهام، مهما كانت الحيثيات التي تدينه لعدم إنقاذها.

سألها جيس بخشونة:

«والآن ما الذي يضايقك؟»

أجابت:

«لا شيء».

استطرد يقول:

«هناك شيء حدث عندما كنت في سان أنطوان ـ أليس كذلك؟»

التقطت كولي عوداً من الحشائش بعصبية، وراحت تقلبه بين أصابعها، وشعرت باصراره على الاجابة، وترددت في أن تفضي اليه بالسبب الذي يبعث الهدوء الى نفسه.

قال لها بصوت يشوبه الهدوء والتهديد معاً:

« كرول... أخبريني»

أخيراً قالت:

«اصطحبني توني الى المدينة يوم السبت الماضي...»

«شراء»

تمهلت كرول قبل أن تواصل الحديث:

«ثم أخبرني كيف مات ريك»

وتطلعت اليه لترى وقع كلماتها عليه، فوجدته يدفع برأسه الى الوراء وكأنه يفيق من لطمة أصابته، ثم تمتم قائلاً وهو يرتكز على أحدى مرفقيه:

«فهمت»

قاطعته لتواصل حديثها:

«أنا سألته... لا داعي لأن تخفي الأمور عني... فقد كبرت ولم أعد طفلة»

قال جيس ساخراً:

«اذا كنت قد كبرت حقاً، فلا داعي لأن تواصلي تذكير الناس بذلك. والآن وقد عرفت القصة، فهل اقلاتك»

هزت كرول كتفيها، وقالت:

«لا أعرف ولكن ما أعلمه أن الجبن لا يصل بك الى أن تكون قاتلاً»

صاح غاضباً:

«لست في حاجة الى سيدة للدفاع عني!»

قالت كرول:

«لا تحاول أن تجعلني أعتقد بأنه كان في وسعك إنقاذ ريك ولم تفعل... أليس كذلك!»

وأحست بألم من غضبه، فقفزت واقفة، وأردفت تقول:

«لأنه لو كان في وسعك أنقاذه لفعلت، أعرف انك لست جباناً»

نهض جيس بدوره، ووقف صامتاً الى جوارها، ومدّ ذراعيه نحوها وجذبها

نحوه حتى استراحت ذقنه على جدائلها، ثم قال لها:

« كرول... أعترف لك بأنني حقيقة أريد هذه المزرعة لنفسي، أكثر من أي شيء في هذه الدنيا»

زاد وجيب قلب كرول، فانتزعت نفسها من بين ذراعيه، وهرعت نحو جوادها، لامتطائه، ولكن جيس أسرع ليمسك باللجام، فلم تملك الا أن أطلت عليه بنظراتها بينما كانت دموعها تسيل على وجنتيها.

قال جيس بصوت هادئ، بينما كانت القسوة بادية على ملامح وجهه:

«قلت لك بأنك ستتألمين»

«اسمع يا جيس سالندج... اذا كنت لا تحتمل الكلام الذي قيل عنك، فمن الأفضل ألا تكون هنا الآن، أما اذا كنت حقاً تريد المزرعة، فأنت تقبل على نفسك أن تلتم الأقدام أو تدع أخاك يموت من أجل أن تحصل عليها»

ولم تستطع كرول أن تواصل حديثها، بل انفجرت الدموع في عينيها، وانتزعت اللجام من يديه، ولكزت جوادها الذي اندفع يهبط التل، وهي لا ترى أمامها سوى جدول الماء.

لم تكد تبلغ المنزل، وترفع السرج عن جوادها، حتى وجدت جيس يقف الى جوارها صامتاً، بينما حاولت هي أن تتجاهل وجوده، وأخيراً سألته وهي تنظر له بحدة:

«حسناً! ماذا تريد؟»

توهجت عيناه، وهو يقول:

«أتساءل... هل ما زالت الأشواك تعلو ورقتي الصفراء؟»

أجابت كرول بغضب، وهي تلقي بالسرج على الأرض

«أجل... ما زالت باقية!»

قال:

«يمكنك أن تمرحي وحدك، من الآن فصاعداً، ولكن في نطاق المزرعة ولا تقتربي

من قطيع الجياد».

واستدار لينجه بجواده نحو المراعي، وظلّت ترقبه حتى اختفى، وعلى مائدة العشاء، دارت مناقشات حامية بين جيس و بن حول نقل قطيع من الماشية بعيداً عن القطاع الجنوبي، وأثناء الحديث ألقى جيس نظره على كولي ووجهها ابتسامة دافئة سحرتها، ثم أدار وجهه بابتسامته ليتحدث الى الرجل الأشيب الذي يتصدر المائدة قائلاً:

« بن أنا على استعداد لنقل القطيع، اذا كان هذا رأيك؟»

وخلال الحوار الذي كان دائراً بين الرجلين، كان يتناهى الى سمع كولي بعض تلك النوادر والطرائف المرحة التي كان يتبادلها داني و توني... وبعد العشاء، رفض بن أن يشارك الآخرين الجلوس في الشرفة، وأصر على أن لديه كثيراً من الأعمال التي يريد أن يفرغ منها في مكتبه، وبلا شعور جلست كولي الى جوار جيس، وأخذت تستمع الى داني وهو يستخدم أساليبه ليحمل توني على أن يأتي معه لاصلاح سيارته...

وفي النهاية انصاع توني وتبع داني الى الفناء بلا أدنى حماسة، ومالت كولي بجسمها على الأريكة وهي تستمع الى جيس الذي كان يتحدث مع الخالة في موضوعها المفضل... ورودها.

قالت الخالة:

«كنت أشير في حديثي مع كولي أنني بصدد اعداد حفل في الحديقة متى ازدهرت ورودي».

وفجأة تردد في الفضاء صوت رنين الهاتف، فقالت:

«يا إلهي.. ترى من يكون المتحدث؟»

ابتسمت كولي وهي ترى خالتها تنهض بسرعة من مقعدها لترد على المتحدث، ورأت جيس يشعل سيكارته، فطفقت تدرس ملامحه فأعجبها وجهه القوي، وكبرياء أنفه، واستدارة شفتيه الناعمتين وجبينه المتألق، وانحناءة حاجبيه فوق عينيه البراقتين، وقد بدت الندبة طبيعية على وجنته حتى أصبحت جزءاً

منه فلم تعد تراها قبيحة أو مخيفة، وأسدل الدخان المتصاعد من سيكارته ستارة تفصل بينهما فأدارت كولي عينيها تتأمل الأفق...

بدد جيس الصمت بأن قال ساخراً:

«ترى فيمَ تفكر جوهرة الحكمة الآن؟ أم أنك تخلصت من أفكارك بعد ظهر اليوم؟»

أجابت كولي:

«أنت تعلم أنني كنت على حق، ان أي موضوع يدور بين أثنين يحتاج الى مناقشة وحوار... وهذا ما أثبته أنت في حوارك مع بن هذه الليلة».

«لم يكن حواراً، بل اختلاف في الرأي...»

قالت كولي:

«انه اختلاف كبير».

سألها:

«وهل تشعرين أنني فعلت الشيء الصحيح بالموافقة على قراره؟»

«أجل، حان الوقت لكي تتوقفا عن التطاحن، وعن أن يحاول أحدكما أن يفوز بالغلبة على الآخر. بن رجل مسن ومشلول يحتاج الى الشفقة وتوفير أسباب الراحة أكثر من حاجته الى الشجار».

قال جيس غاضباً:

«انه متوحش، والمتوحش لا يحتاج الى شفقة...»

اندفعت كولي قائلة:

«حسناً... انه هو يحتاج الى الرأفة، ويقدر حبك للمزرعة، يجب أن تدرك كم هو مؤلم للرجل أن يكون مقيداً الى مقعد متحرك، وعاجزاً عن الخروج ورؤية ما يدور حوله. أعتقد أنك وجدك تتساويان في حب هذه الأرض».

ترك جيس الأريكة فجأة، وأستند على سور الشرفة، ثم قال:

« سلاش آس أرض متوحشة، وطالما يعيش واحد من أفراد عائلة ساندج، لن أقف مكتوف اليدين وأنا أراها تزول الى شخص آخر. سأبذل ما في وسعي لأحول دون ذلك».

ودفعها غضبه العنيف الى أن تغادر الأريكة بدورها، وتقف صامتة الى جواره وتضع راحتها على ذراعه، وعندما أحس بلمس يدها نظر اليها، فسألته:

«ألا تعتقد أن بن يحس مثلك تجاه الأرض؟»

استدار جيس ببطء وقال لها بصوت خفيض:

«كولي... مهما كنت على صواب في رأيك، ليس في وسعي بقليل من الكلمات أن أزيل بذور الشك وعدم الثقة التي تراكمت عبر السنين. هناك العديد من الجراح التي لا تستطيع قبلة واحدة أن تجعلها تلتئم. انها تحتاج الى وقت».

ودفعها برقة تجاه الدرجات التي تؤدي الى الفناء، وأردف يقول:

«الآن استطلعي ماذا يفعل أخوك و توني».

وسارت كولي مترددة، وهي تحدق فيه، ورأته يشعل سيكارة أخرى فانتابها احساس بالهزيمة وشعور غريب بالعناء، وكأنها تنوء بحمل ثقيل من متاعبه، ولكن لماذا يخفق قلبها عالياً وترتجف؟ لماذا؟

مسحت كولي حبات العرق التي علت جبينها، من جراء حرارة شمس تكساس اللافحة، ثم راحت تطعم جوادها قطعة من التفاح. منعتها الحرارة من أن تمضي فترة بعد الظهر في ممارسة رياضة ركوب الخيل فربتت على رأس الجواد، وتركته، وتردد صوت وقع حذائها على الأرض وهي تسير وراحت تتلفت حولها، لعلها ترى جيس. فهذا الوقت هو موعد عودته. كان قد تركها في الصباح بعد الحديث الذي تبادلاه في الشرفة، لينقل الماشية بعيداً عن القطاع الجنوبي. كل شيء تراه بلا معنى بدون وجوده وفي مثل هذا الجو الحار لا تستطيع أن تفعل شيئاً. فكرت أن تلقي بنفسها في حوض السباحة، لكنها نبذت الفكرة سريعاً.

سارت بلا هدف حتى وصلت الى الحظيرة، واعتلت السور فشاهدت ثوراً جامحاً يجوب الحلبة لا بد أنه ساتان الذي قتل ريك وترك ندبة على وجنة جيس، فأحست بجفاف في حلقها وهي تحدق فيه. وانتابها الفزع وهي تراه يدك

الأرض بحوافره في غضب مخيف.

وتساءلت كولي: هل هذا الشعور الذي احست به الآن هو الشعور نفسه الذي انتاب جيس؟ هل هذا الشعور هو الشعور الذي شل تفكيره، فمنعه من الحركة؟ هل اشاعت نظرات الثور البرودة في أوصال جيس فنام مغناطيسياً ولم يفق إلا على صرخات ريك؟

تقلصت أصابع كولي على السور وتلاحقت أنفاسها، وهي تشاهد نظرات الثور تنفث رعباً وكشفت حركاته عن نية الوثوب عليها. وفي اللحظة التالية ألقت بنفسها بعيداً عن السور وهي تطلق صرخة خوف، واذا برأسها يصطدم بصدر صلب يرتدي قميصاً من القطن، وشعرت أنها استعادت رباطة جأشها عندما شمت رائحة دخان مألوفة، وهي تلك التي تنبعث من أنفاس جيس وزايلها الخوف عندما أحست به يحتويها بين ذراعيه. انها الآن آمنة وشعرت به يعتصرها في صدره. يضمها اليه، ويضغط وجهه في رأسها، وحاولت أن تتخلص من ذراعيه برفق، وأن تلك أصابعها مرتاحة على صدره، وعندما تطلعت الى عينيه، رأت القلق بادياً فيهما، فمالت نحوه ثانية كأنها تريد أن تكون في كنفه، وهمست قائلة:

«كنت خائفة، فلم أستطع الحركة».

قال لها بخشونة، وهو يهز كتفيها:

«قلت لك من قبل ألا تأتي الى هنا، هل تفهمين؟»

قالت بضعف وهي تحس بالرقة تسري في نظراته:

«أجل، انني سعيدة بعودتك».

أمرها بحزم قائلاً:

«اذهبي الى المنزل...»

امتثلت لأمره، وبدأت تسير في خطوات بطيئة نحو المنزل، لكنها أدارت رأسها وسألته:

«هذا الثور.. هل هو ساتان؟»

ولم ينبس جيس بكلمة، لكنه نظر اليها نظرة باردة، واتجه الى الحظيرة. وكانت كولي تشعر أن كل خطوة تقطعها نحو المنزل تزيد من اتساع المسافة بينها وبين جيس، وأمضت ليلة تعسة بالرغم من محاولات داني و توني للترويح عنها. لكنها لم تحاول أن تفضي لأخيها بما حدث عندما جاء لزيارتها في غرفتها.

وأمضت الأيام الثلاثة التالية في شقاء تام لأنها أصبحت تعيش سجينة جدران المنزل لمراضاة جيس... وكانت تغرق نفسها في مساعدة خالتها ودأب هو على أن يتجاهلها أثناء وجبة العشاء، ويختلق عذراً للذهاب. وأحست أن الكيل طفح بها في رابع ليلة، عندما استأذن وغادر غرفة الطعام بدون أن تعرف وجهته ورافقت خالتها والعم بن الى الشرفة وراحت تراقب بقلق العاصفة التي تردد صداها في الأفق.

قالت الخالة:

«يبدو أن عاصفة صيفية سوف تهب علينا قبل شروق شمس الصباح. أرجو ألا تكون عاصفة عاتية، فالعاصفة السابقة قضت على ورودي. لكن ما بالك قلقة الليلة يا كولين هل هناك أمر يسبب لك الضيق؟»

أجابت كولي بسرعة:

«كلا يا خالتي أفكر في التوجه الى غرفتي لآخذ حمام دافئ، وأنام مبكراً، وأعتقد أن أعصابي متوترة من العاصفة».

لقي هذا التوضيح قبولاً لدى الخالة، فسارعت كولي الى غرفتها خوفاً من طرح مزيد من الأسئلة، فلا تجد لها جواباً، وبعد الاستحمام، ألقت بنفسها على الفراش وسحبت الأغطية فوقها، ثم راحت تحدق في السقف.

أضاءت شعلة البرق صفحة السماء، ثم تبعها الرعد، فأيقظ كولي من نومها العميق. وأحست بنبض قلبها يدق دقات محمومة، فاستوت جالسة في الفراش، وأخذت تترقب أن يتلاشى آخر صوت لصدى الرعد، لكن السماء أبرقت ثانية،

فأسرعت تغطي أذنيها براحتيها حتى تنتهي موجة الرعد. وعندما هدأت الأصوات زحفت من فراشها، وارتدت الروب، وغادرت غرفة نومها، فواجهت ظلاماً دامساً يكسو الطريق الذي يفضي الى درجات السلم، فبحثت عن مفتاح النور، لكن أصابعها توقفت عن البحث حتى لا توقظ الآخرين، فأمسكت بالدرابزين، وراحت تهبط الدرجات على ضوء وميض البرق الذي كان يبدد الظلام. ووصلت أخيراً الى الصالة فسارت على أطراف أصابعها وسمعت الساعة تدق معلنة الواحدة، فأفزعتها الدقة التي لم تكن تتوقعها، وتعثرت في المنضدة وسط الصالة، وأطاحت يدها بالزهرية التي تهشمت على الأرض وبدد صوت تحطيمها سكون المكان.

وتناهى الى سمعها صوت أجش صادر من المكتبة، يسأل:

«من هناك؟ هل هذا أنت يا خالة؟»

وسمعت كولي سؤال العم بن وهو يدفع مقعده المتحرك على ضوء البطارية التي يحملها، فرسمت على شفتيها ابتسامة قبل أن تستدير لمواجهته، وتقول له بصوت هامس:

«أنا كولي يا عمي، تعثرت في الزهرية».

سألها بخشونة:

«ماذا كنت تفعلين؟»

راحت كولي تجمع بقايا الزهرية المحطمة وهي تقول:

«العاصفة أيقظتني».

قال بن ساخراً:

«هل أفزعتك أصوات الرعد؟ ألا تستطيعين النوم بمفردك؟»

وعاد الرجل المسن الأشيب الى غرفته وراح يغلق النوافذ ويسدل الستائر حتى يحول دون بلوغ أصوات الرعد الى الغرفة، ثم دفع مقعده المتحرك نحو المكتب ووضع فوقه البطارية، وأشعل شمعتين.

قال لها وهو يحدق في وجهها الذي كساه الشحوب:

«التيار الكهربائي مقطوع. اجلسي يا فتاتي واسترخي. ودعينا نتبادل الحديث حتى يتوقف صوت الرعد».

جلست كولي على أحد المقاعد الوثيرة، ولم تشعر بالاسترخاء ما دام الرعد لا يزال يدوي في الخارج. وراحت تتطلع الى وجه الكهل الجالس أمامها. وأخيراً قال لها:

«زوجتي ـ رحمها الله ـ اعتادت أن تنتقل من نافذة الى أخرى طوال فترة الرعد، ولذلك ترين أنني معتاد على أن أخفف من الفزع الذي يعتري الفتيات أثناء العاصفة».

قالت كولي:

«أنت تفتقد وجودها».

تنهد بن وقال:

«أجل، رحلت عني منذ عشر سنوات. ماتت بعد زمن قصير من مصرع ابننا الوحيد وزوجته في حادث اصطدام. وكان زوج الخالة قد توفي في عام سابق، لذلك انتقلت لتعيش هنا. ومنذ ذلك الوقت لم يعد المكان لسابق عهده. انه لأمر غريب أن تعيد أصوات الرعد العتيقة هذه الذكريات».

صمت قليلاً، ثم فتح درجاً في مكتبه، وأخرج صورة داخل اطار مذهب، ولمس الوجه بشغف قبل أن يناولها اياها، ثم أردف يقول بصوت وقور:

«انها زوجتي. التقطت لها هذه الصورة قبل وفاتها بشهور قليلة».

وكانت الصورة عائلية تتوسطها سيدة على شفتيها ابتسامة، ولها عنق نحيل، يحمل رأساً شامخاً يعبّر عن الكبرياء والاعتزاز، وكانت عيناها تفيضان بفنون من الحياة، تمسك بيد زوجها بن سافدج.

كان شعره حينئذ أسود. ثم رأت شخصين على جانبي الصورة عرفت أحدهما بسهولة. كان جيس الذي كان يتطلع بعيون دافئة، أصغر عمراً ولا أثر للندبة على وجنته. أما الشخص الآخر فكان ريك يتألق وجهه بضحكة صبيانية. وقد عرفته من التشابه بينه وبين أخيه جيس، وان كان أرق منه. وأدركت من خلال

ذلك سر الجاذبية التي كان يتمتع بها. وبعدما تأملت كولي الصورة أعادتها الى بن فحملها وراح يمعن النظر فيها قبل أن يضعها على المكتب.

وأخيراً قال بحنان:

«المآسي تأتي دائماً ثلاثية. فقدت حفيدي منذ خمسة أعوام مضت...»

تمتمت كولي قائلة:

«أعرف ذلك...»

فنظر اليها بن بحدة، وبدا عقله كأنه ينبذ ذكرياته، وركز تفكيره عليها، فانتابها القلق لنظرته، فاستطردت تقول:

«توني أخبرني بكل شيء».

«ماذا قال لك؟»

قالت بتلعثم وهي تعبث بحزام ثوبها:

«انه... انه... قال لي أن أظل بعيدة عن الموضوع».

سألها بن:

«هل هذا كل ما قاله لك؟»

أجابت:

«ولكن يا عمي، كان الأمر مجرد حادثة ـ أنا متأكدة أنه كان حادثة».

وراح يفحصها بنظراته الحادة، وقال:

«كل منكما أصبح شيئاً رهيباً في الأونة الأخيرة... أنت...»

قاطعته كولي وكأنها لا ترغب في أن تنهي عبارته:

«بالطبع لا... حسناً، رأيت الثور ساتان امس وفزعت منه لدرجة أنني لم أستطع أن أتحرك، أو حتى أقوى على الركض أو الصراخ. لم أتمكن من فعل أي شيء، جاء جيس وجذبني بعيداً قبل أن يهاجمني الثور. هل تعلم أن جيس أنقذني؟»

«ولكن كم من الوقت ظل واقفاً هناك وهو مفزوع مشلولاً وما الدور الذي قام به

عندما حدثت لك هذه الخدوش في يدك وأنت تتشبثين بالصخرة منذ عدة أيام؟»

شحب وجه كرلي عندما سمعت كلماته، فهز بن رأسه وكأنه ينهي دفاعها عن جيس ثم استطرد يقول:

«العاصفة سكتت تماماً. ويحسن بك أن تتوجهي الآن الى فراشك».

وعندئذ حاولت كرلي أن تتكلم، لكنه أشار لها بيده أن تصمت ثم واصل حديثه قائلاً:

«وشكي بنصيحة جيس: كوني بعيدة عن الموضوع، أنا أصبحت مسناً. أما هو فانه كالفهد الذي لا يستطيع تغيير جلده. اذهبي الى فراشك».

وأحست كرلي أنها فشلت في كسب ود جيس والعم بن وحملت البطارية لتسير في ضوئها، وارتقت الدرجات على أطراف أصابعها وما كادت تبلغ باب غرفتها حتى سمعت صوت باب الغرفة المجاورة يفتح، فسارعت بتوجيه الضوء الى وجه القادم، وكان جيس الذي سألها:

«ماذا تفعلين؟»

همست كرلي قائلة:

«انقطع تيار الكهرباء».

قال برقة:

«أعرف ذلك، أعني ماذا كنت تفعلين؟»

«أيقظني صوت الرعد».

قال جيس:

«تساءلت اذا كان في وسعك النوم وسط الرعد؛ أين كنت منذ لحظات؟»

أجابت كرلي بتردد:

«في الطابق الارضي. كان العم بن مستيقظاً أيضاً، وقد تبادلت الحديث معه. هل تظن أن العاصفة انتهت الآن؟»

طرحت كرلي سؤالها قبل أن يحاصرها جيس بأسئلته، ونجحت في محاولتها اذ أخبرها أن العاصفة انتهت فعلاً. وتناول البطارية من يدها وقادها الى

غرفتها، ولأول مرة لاحظت أنه عاري الصدر، فأخذ قلبها يخفق بعنف وهي تتأمل الشعر الأسود الذي يكسو صدره. ناولها البطارية وقال لها وهو يغادر الغرفة:

«طابت ليلتك...»

وأغلق الباب ـ هي في داخل غرفتها... وهو في الخارج!

٧ ـ الوردة الصفراء

راحت كولي تتحسس بأصابعها حافة أوراق الورد الحمراء، فشعرت بنعومتها وتذكرت تعليق جيسون حين قال: «أيتها الوردة الصفراء» حدث ذلك منذ زمن بعيد. أما الآن فهو يعاملها معاملة أخوية، ومختلفة. حتى المعاملة الأخوية تفتقدها أحياناً. وتنهدت بعمق عندما تذكرت انه منذ أسبوع مضى، وفي تلك الليلة التي أرعدت فيها السماء، وصلت علاقتهما الى طريق مسدود.

انه امر مثبط للعزيمة، مخيّب للأمل. كانا في الماضي ينعمان بالصحبة سوياً، وكان هذا يرضيها، فعلى الأقل كان مهتماً بها. أما الآن فانه يربت على رأسها، ويقول لها: «إنطلقي مثلما تنطلق الطفلة الصغيرة» وقد انتابها الغضب عندما فكرت انه يعاملها كالطفلة، ونفثت غضبها في ساق الورد المليئة بالأشواك فانغرزت احداها في أصبعها. أطلقت صرخة لفتت انتباه الخالة التي أدارت رأسها في اللحظة وكانت كولي تمصّ أصبعها.

قالت الخالة:

«كولي... أخبرتك مرارا بأن تحترسي من الأشواك، فهي مؤلمة.»

وتناولت الخالة الورود من يدي كولي ووضعتها في سلة، قبل أن تنتقل الى مجموعة أخرى من الشجيرات، ثم استطردت تقول:

«من الصعب أن تنمو الزهور في الأرض القريبة الجنوبية بسبب حرارة الشمس، هل تعرفين ذلك يا كولين؟ انا أردت رؤية الورود حقاً. أعني ملايين الورود،

عليك أن تذهبي الى تايلر في تكساس، فإن أكثر من نصف الأراضي مزروعة بالورود في تايلر، وتتاجر فيها منذ عام ١٨٧٠. ويروي الناس حكاية تقول: ان الوردة تظل متفتحة اذا كان النفط مختزناً في تربتها»

وأطلقت الخالة ضحكة على هذه القصة ثم أردفت تقول:

«هناك أكثر من خمسمائة نوع من الورد، وتتميز بالألوان المتعددة، لكن لا يمكنك التمييز بينها اذا كانت تسبح في حوض النفط. وقد رافقت جورج الى حديقة تايلر عدة مرات. انها تجربة لايمكن نسيانها.»

هزت كولي رأسها وهي غائبة عن الوعي. فلم يكن في وسعها أن تبدي أي حماسة لزيارة تايلر فهي مشدودة الى مشكلتها مع جيس، وليس لديها فسحة من الوقت للاهتمام بأمر الورد... أن كبرياء ذلك العجوز سالفلاح قد دمّر كل شيء.

وثابت الى رشدها، عندما سمعت خالتها تسألها:

«أنت صامتة يا كولي، هل هناك شيء يؤرقك؟»

قالت كولي:

«أوه... انه العداء الغريب بين جيس والعم بن...»

زوت الخالة مابين حاجبيها، فلم تكن تتوقع أن تطرق كولي الموضوع وقالت:

«العداء ليس غريباً، وانما هناك أمر آخر»

قالت كولي بحدة:

«ولكن جيس حفيد العمّ بن ولا يمكن أن يدع أخاه يموت...»

«الخوف يجعل الناس يأتون أموراً غريبة يا كولين. فعند بعض الناس يزداد الأدرينالين الى درجة تدفعهم الى القيام بأمور تفوق قوتهم الطبيعية ويتحول بعضهم الآخر الى صخور صماء. وهكذا في بعض الحالات تصفق لهم وفي بعض الحالات الأخرى تدينهم.»

قالت كولي:

«لا أعتقد أن جيس شخص جبان، فضلاً عن انني لا أتصور أن يكون قاتلاً.»

قالت الخالة بهدوء، وهي تحمل في يدها برعماً:

«لايمكن لأحد أن يحكم على احساسك الداخلي يا كولين سوى الله، أما المظهر الخارجي فيمكن للرجل أن يصدر حكمه عليه، وقد صدر الحكم في وفاة ريك بأنه الموت قضاء وقدر»

«اذن... لماذا يصرّ العم بن على مواصلة عقاب جيس، وكأنه قتل أخاه بيده؟»

قالت الخالة قبالي:

«لا تداومي التفكير في الموضوع بهذه الصورة...»

«ولكنني لا أستطيع أن أتصوّر وجود شخصين أكنّ لها كل حب...»

وتوقفت عن مواصلة الحديث، اذ تضرجت وجنتاها بلون الدم عندما وجدت خالتها تمعن النظر فيها، وتقول لها:

«اسمعي يا طفلتي... يجب عليك عدم التورط مع جيس...»

قاطعتها كولي بغضب، ثم اندفعت بجرأة قائلة:

«لست طفلة... أنا في التاسعة عشرة من عمري وعلى مشارف العشرين. لست طفلة.»

خيّم الصمت على الخالة عند سماعها هذه الكلمات وانهمكت في ورودها، كأنها تتأمل مضمون عبارة كولي التي وقفت الى جوار خالتها صامتة أيضاً، وودت لو أن غضبها لم يدفعها الى التفوه بمثل هذه الكلمات. كانت ترغب ألا تجرح خالتها لكنها ضاقت ذرعاً بالجميع الذين دأبوا على أن يقللوا من شأنها...

قالت لها الخالة:

«ما نريده حقاً هو أن نقيم ذلك الحفل الذي حدثتك عنه، حيث يمكنك الالتقاء بالشباب ومشاركتهم مختلف نشاطاتهم.»

حدثت كولي نفسها قائلة: وسوف لا تتاح لي أي فرصة للتفكير في جيس. مسكينة الخالة انها تحاول اشاعة البهجة في نفس كولي وقد حاولت كولي بدورها أن ترافقها في سرور بالغ على فكرتها.

راحت كولي تتطلع الى المرآة، وأخذت تفكر في خالتها. انها تحس حماساً بالغاً عندما تأخذ على عاتقها تنفيذ اي قرار ففي عصر ذلك اليوم الذي أشارت فيه الى الحفل، بدأت في دعوة عائلات المنطقة. ولم تكن تعرف أن خالتها تستطيع أن تنظم هذا الحفل خلال يومين، ان أشرفت بنفسها على الحلوى والطعام، كما أعدت الموائد في الحديقة وكذلك الأضواء بمساعدة داني وتوني وتوجهت الى المدينة لشراء مكملات الزينة التي سترتديها كولي في الحفل.

وليلة الحفل، تأملت كولي نفسها في المرآة. كان شعرها في تصفيفة رائعة، وثوبها الأصفر جميلاً. وسمعت أبواب سيارات المدعوين تفتح وتغلق امام المنزل وتمنت في اللحظة نفسها أن يكون داني في غرفته حتى تستطيع أن ترافقه الى الطابق الأسفل. ولم يعد الآن لديها أي شعور بالقلق عند مواجهة الغرباء. ابتسمت عند مغادرة الغرفة وهي تتمنى أن يحضر جيس، فيراها هذه الليلة في ثوبها الشيفون الأصفر.. امرأة كاملة الأنوثة.

أخذت كولي تتهادى في خطواتها في الممرّ عندما سمعت خالتها تقول:

«أخيراً... وصلت ياعزيزتي كولين أنت جميلة الليلة. أيفيل... أقدم لك ابنة أختي. في الحقيقة ابنة أختي، ولكن لاتحاولي مناقشة موضوع السن الآن»

وضحكت الخالة وهي تسحب كولين من ذراعها، وتتجه الى رهط من الناس يضم ايفيل ميربك وزوجها بوب وابنتيها راشيل ور ويرتا.

حيت كولين الفتاتين بإيماءة من رأسها. وبدأت وفود المدعوين تصل تباعاً، وتاه عقل كولين في بحر الوجوه والأسماء. تعرفت الى أسرة هاملتون وابنها هيوارد وابنتها برندا وأسرة راسموسن وأطفالها الخمس جيم، جو، جانيت، جود، جين، ثم عائلات بيترسون، و سيمبسون، و جونسون،... و ماسون.. وأخيراً توقف عقلها عن متابعة الأسماء. كما قدموا لها فتاة ذات شعر أسود، رمقت كولي بنظرة غريبة وقحة، وعندئذ دقّ الجرس يدعو المدعوين الى العشاء. ولمس توني ذراع كولي بخفة، وقال لها:

«سأحضر لك طبقاً»

وكان ثلاثة من الصبية على مقربة منها، فبادر صبي أشقر يقول:

«كلا، أنا الذي سأحضر لك الطبق...»

وتذكرت كولي أنه أحد أبناء راسموسن وفي هذه اللحظة أقبلت فتاة ذات شعر أحمر تقول له:

«لا... أنت ستحضر لي طبقي أنا يا جون راسموسن»

أجابت جون:

«بالطبع، ولكنني أستطيع أن أحمل طبقين»

قالت الفتاة:

«بل ثلاثة أطباق... هل نسيت نفسك؟»

وسار الصبية الثلاثة نحو المائدة وهم يتجادلون حول من منهم سيحمل طبق كولي والتفتت الفتاة ذات الشعر الأحمر الى كولي قائلة:

«أرجوك... ابتعدي عن جون. بذلت جهداً كبيراً لكي يعتقد كل انسان أنه سيقترن بي»

وشرعت كولي تقول:

«أرجو ألا أفعل شيئاً...»

وعندما قاطعتها الفتاة قائلة:

«كل الشباب يهتمون بكل فتاة جديدة تأتي الى هنا، وخاصة اذا كانت واحدة وافرة البدن مثلك. على فكرة.. اسمي جيل سوندرز»

قالت كولي وهي تصافحها:

«أسمي كولي، هكذا يناديني أصدقائي»

وفي هذه اللحظة، مرّت الفتاة ذات الشعر الأسود التي رمقت كولي بنظرة غريبة، وتطلعت الى الفتاتين ببرود، ولم تستطع كولي أن تخفي دهشتها، فسألت جيل:

«من تكون هذه الفتاة؟»

«انها نانيا فورد، لا أعرف سبب مجيئها الى هنا، فلا يوجد أحد هنا ينافسها

الا... فأنا أعود ثانية... وأترك لساني ينفلت بالكلام...»

وصمتت جيل ولكنها رأت نظرات التساؤل في عيني كولي فأضافت تقول:

«من المحتمل أنك لاتعرفين... كانت تتواعد بانتظام مع جيسون قبل الحادث. هذا على الأقل ماترده الشائعات، وقد سمعت أنها تركته، عندما بدأت الفضيحة تنتشر، لكنني في الحقيقة... أوه أنبل الفتيان... تعالي يا كولي وانضمي الى مجلسنا...»

وافقت كولي وسارت نحو المائدة، لكن عقلها كان في سباق مع نفسها لكي تتم عبارة جيل لايوجد أحد هنا ينافسها الا جيس...

اعتادت أن تقابله لكنها توقفت عن مقابلته. وربما جاءت لتعيد المياه الى مجاريها ثانية... وعندما وصل تفكيرها الى هذا الحد، أحست بقلبها يغوص الى الأعماق. وشعرت بالسعادة لوجود الطعام لأنه سيشغلها عن الحديث. ولكنها وجدت أن الطعام يقف في حلقها. ومع ذلك رأت أن ذلك أفضل من أن يتم صوتها عن مشاعرها التي أضطربت لسماع حديث جيل.

بدأت كولي تتفقد الوجوه التي وقفت حول المائدة. وقنت في تلك اللحظة أن يأتي جيس، لكنها فوجئت بوجوده جالساً على بعد عدة موائد منها. كان متجهماً، وكأن تجهمه كان موجهاً اليها، ومع ذلك هز رأسه. وابتسم لها بعد لحظة وتظاهر بأنه فوجيء برؤيتها فابتسمت له بدورها، قبل أن تعود لمواصلة الحديث مع رفاقها.

وبعد أن انتهى الجميع من تناول الطعام، انتشروا في جماعات ولاحظت كولي أن أخاها يتحدث الى فتاة هادئة ذات شعر بني طويل واقترح أحدهم الرقص، فقام توني بالتوجه الى المنزل لاحضار الأسطوانات، وفي ذلك الوقت قالت جيل لكولي:

«ما رأيك في أن نتوجه الى المنزل لتجديد نشاطنا أثناء انهماك الشباب في نقل الموائد جانباً؟»

وافقت كولي على اقتراح جيل التي انهمكت في الحديث مع بعض الفتيات، وسرن جميعاً الى المنزل. وفجأة شعرت كولي برغبة في الانفراد بنفسها وعندما بلغن المنزل، ادّعت كولي أن أحمر الشفاه الخاص بها قد نسيته في غرفتها، واستأذنت احضاره، وارتقت درجات السلم سريعاً، بينما توجهت الفتيات الى غرفة نوم الخالة التي أعدتها لتصلح مكاناً تجد فيها المدعوات جمالهن، وعندما وصلت كولي الى غرفتها، وضعت لمسات من الأحمر على شفتيها، ثم سارت بتراخ نحو النافذة، لتحدق في وجوه المدعوين.

وفجأة انجذب بصرها الى الخميلة الموجودة في الحديقة اذ رأت جيس واقفاً هناك. وفي بادئ الأمر ظنت انه يقف وحده، ولكنها رأت شبحاً آخر يخرج من تحت الخميلة، وكان الظلام حالكاً فلم تستطع أن تحدد شخصيته، وإن كانت معالم القوام توحي بأنه لواحدة من الجنس اللطيف. وأدركت بغريزتها لابد أن تكون تانيافورد وعندئذ أحست بألم يعتصر معدتها وهي تشاهد الفتاة تسير بإغراء الى جوار جيس.

وعندما التف ذراعه حول وسط تانيا وتحوّلت كولي مبتعدة سريعاً عن النافذة، وارتجفت شفتاها، وتلاحقت زفراتها، ولم تستطع أن تعود على الفور الى الحفل لكنها تذكرت أن الفتيات ينتظرن قدومها. ولم تنتظر طويلاً اذ قررت فجأة أن تهبط الدرجات، وتمهلت قليلاً عندما بلغت غرفة الخالة وسمعت ضحكات الفتيات تتردد عالياً. وكانت على وشك أن تدلف الى الغرفة عندما طرق سمعها اسم جيسون يتردد على لسان احدى الفتيات الموجودات في الداخل، فتوقفت تستمع:

قالت الفتاة:

«أعتقد أنه أنيق... لاأقصد أنيق المظهر وانما يتمتع برجولة فائقة...»

وصاحت أخرى تقول:

«ولكن ماراأيك في الندبة الموجودة على وجنته؟»

قالت الفتاة بتفاخر:

«انها تعطيني احساساً بأنه طبيعي الفطرة.»

قالت فتاة أخرى:

«انا أهرب منه، وخاصة بعد أن اتهمه الجميع بقتل أخيه... انه يعيش الآن في معزل عن الناس. نظراته تجعلني أتجمد في مكاني.»

قالت الفتاة الأولى:

«أظن أنه شخص مثير... وخطير أيضاً...»

قاطعتهم جيل قائلة:

«صمتاً يافتيات. كولي ستأتي في أي لحظة... وستسمع حديثكم.»

وعندئذ ابتعدت كولي عن الباب مدركة ان تانيا ليست الفتاة الوحيدة التي تجد جيس جذاباً. وراحت تخترق الممرات متجهة الى مكان غير مطروق ووقفت تحت شجرة بلوط وفجأة سمعت صوت جيس الساخر يأتي عبر الظلام الدامس قائلاً:

«هل أنت في طريقك الى موعد غرام؟»

أجفلت كولي لصوته وقالت:

«بالطبع لا... على الأقل ليس الطريق الذي تقصده.»

وسمعت دقات قلبها تتلاحق بسرعة عندما لحق بها، واستطردت تقول:

«رأيتك من نافذة غرفتي، كنت واقفاً عند الخميلة...»

قال مؤيداً كلامها:

«أجل. وأنت هل كنت تستمتعين بصحبة طيبة؟»

«أجل. يعاملني الجميع معاملة طيبة، ولا أحس أنني غريبة عنهم.»

بقي جيس فترة في صمت مطبق قبل أن يقول:

«انا سعيد من أجلك. الخالة ستقطع عنقي لأنني سرقت احدى ورودها.»

وتقدمت كولي الى الأمام حتى بلغت دائرة الضوء الهابط خلال فروع الأغصان، وألقى بنوره على الوردة. وكانت وردة شديدة الأصفرار في أوج تفتحها

قال بهدوء:

«وردة صفراء... لزهرة صفراء...»

همست كولي قائلة:

«انها جميلة يا جيس...»

وحاولت أن تزيل صورة تانيا من ذهنها لكنها تخيلته يقدم اليها وردة حمراء، كما يفعل معها الآن، ورأته يثبت الوردة في الدبوس الذي يزين صدرها. وعندما انتهى، ابتسم لها ثم شرع يشعل سيكارته، وبعد أن أطلق الدخان، قال:

«يبدو أنك استمتعت بوقت طيب، حتى أنه لم يخطر ببالك أنني سأكون هنا. لابد أنك محاطة بمجموعة كبيرة من المعجبين.»

رفعت كولي حاجبيها دهشة، وقالت له بسخرية:

«وأنت أيضاً كنت محط أنظار العديد من المعجبات. سمعت مصادفة احدى الفتيات قبل مجيئي الى هنا... انها تعتقد أنك كنت شيئاً هاماً.»

قال جيس:

«حقاً؟»

قالت باستخفاف:

«أجل، حقاً، دعني أقول لك كيف كانت عبارتها... أوه... أجل... قالت أنه يتمتع برجولة فائقة... وطبيعي الفطرة... كما أنه شخص مثير وخطير.»

قال ضاحكاً:

«المفروض أن يكون كل انسان محط أعجاب شخص ما، وأنا أكره أن ـ تعتبريني بغيضاً منفراً، وأن كنت أعرف مسبقاً أنك تكنين لي هذا الشعور.»

وقبل أن تقاطع كولي حديثه أسرع يقول لها:

«أعتقد أن الرقص بدأ، وأنا متأكد أن هناك بعض الشباب يتحينون الفرصة ليطلبوا منك مشاركتهم الرقص.»

تطلع اليها جيس فرأى علامة غاضبة على وجهها، فابتسم وقال بندم:

«لاتخبريني... أعرف... أنت لا تستطيعين الرقص، أليس كذلك؟ تريدين مني أن أعلمك؛ ما قولك لو أخبرتك بأنني لا أعرف الرقص أيضاً.»

صاحت كولي:

«أوه، انك تستطيع الرقص يا جيس، والا فمن سيتولىّ تعليمي؟ انا أطلب منك أن تعلمني.»

ومرّت بهما لحظة سادها توتر خفيف، بينما راحت كولي تنتظر اجابته. وتحرك جيس قليلاً، فسقط ضوء على وجهه المضطرب، وبرزت الندبة جلية واضحة. وأخيراً قال بسخرية:

«الأفضل أن تطلبي من توني أن يقوم بتعليمك.»

لم تتفوه كولي بكلمة، وانما وقفت أمامه وعيناها تتوسلان اليه ألاّ يرفض طلبها ثم قالت له:

«أخبرني كيف أرقص؟»

ووضعت يدها اليسرى على كتفه ـ واقتربت منه، وبلا شعور التفت ذراعه اليمنى حول وسطها، بينما أمسكت يده اليسرى يدها الأخرى. كانت خطواته بسيطة وسهلة، ويده فوق ظهرها ترشدها الى حركات خطواتها حتى شعرت كولي في النهاية أنها تطير بين ذراعيه، وعندئذ توقفت عن التركيز في حركة خطواتها، وأسندت رأسها على صدره، تدريجياً تلاشت المسافة التي تفصل بينهما، ولم تعد تصغي الى أنغام الموسيقى، لأن دقات قلبها المتلاحقة حالت دون وصول الألحان الى أذنيها في حين ازداد احتكاك ذقنه بشعرها، كما تضاعفت ضمة ذراعه لخصرها. ثم توقفت خطواته لحظة، فرفعت رأسها متسائلة، فقال جيس بحزم:

«لا أظن أنك في حاجة الى مزيد من الدروس.»

أرادت كولي أن تعترض عندما أمسكت يداه بكتفيها ليتحرك بها بعيداً، ولكن أشواك الوردة المثبتة على صدرها، تعلقت بسترته وحالت دون الفراق. كما أتاحت لها الفرصة لكي تدرس رأسه. فرأت شعره الأسود متألقاً في الضوء وحاجبيه مقوسين فوق رموش غزيرة السوداء، التي استراحت فوق وجنتيه، وأنفه أشبه بأنف النسر، يلقي بظله على وجهه، وكشف اتساع طاقتي أنفه عن عدم سيطرته على عواطفه، بينما برزت شفتاه باستدارة رقيقة، كلها رجولة ورقة.

ولمحت كرلي بطرف عينيها أن الوردة لم تعد مشتبكة بسترته، ورأت جيس يرفع رأسه، ويفتح فمه للحديث. ولكن الكلمات توقفت على شفتيه عندما أطل ببصره عليها ورآها تتطلع اليه. والتقت عيناها بعينيه، ووجدت يديها ترتاحان على صدره، ثم تلتفان حول عنقه، وهي تقترب من وجهه. وأحست به يجذبها نحوه، ورأسه يميل ليلتقي برأسها. كانت مترددة في بادىء الأمر ولكنها استسلمت لغريزتها. وأحست بقشعريرة تسري في جسمها. وبعد لحظة ابتعد عنها جيس، لكنه عاد ثانية وقد أثارته استجابتها له . . . ثم دفعها عنه بعيداً وقد أخذت ذراعاه تسترخيان، وإن كانت قبضته مازالت متصلبة.

تطلعت كرلي اليه، وقد انعكست نشوتها على عينيها. انها تحبه ولا بد أنها كانت تحبه طوال الفترة الماضية، وهذا سبب ثقتها به. لماذا كانت ثمة كلمة تشقيها، بينما أخرى تسعدها؟ انها لاتملك تحبه...

زوى مابين حاجبيه وهو يتطلع اليها وفجأة صاح قائلاً:

«كفى!»

ولكن كرلي ظلت واقفة.. بعيدة عنه. وان كانت النار التي أشعلها فيها مازالت متأججة في عينيها. فتحول عنها وهو يتوسل اليها ألا تطيل النظر اليه. وأشعل سيكارة، وراح ينفث دخانها، ثم راح يحدق في الظلام الدامس. ويقول لها بغضب:

«اللعنة.»

ولكن كرلي همست قائلة:

« جيس...أنا..»

قاطعها بصوت حاد ومرير:

«لاتقولي شيئاً. اذهبي والحقي الى الحفل.»

«لاأريد أن أذهب...»

«ربما نسيت أنك لست من النوع الذي أبحث عنه..»

استشلت كرلي أنفاسها بصعوبة عندما سمعت هذه الكلمات القاسية

التي أدمت قلبها، وملأ الألم صفحة وجهها، قبل أن تقول له بحدة:

«هذا صحيح.. أنت تحب الفتاة التي تفعل كل شيء مثل تانيا»

قال مؤكدا كلامها:

«أجل مثل تانيا... أنت تعرفين الآن كيف ترقصين»

قالت بمرارة:

«لاحاجة بي الى الرقص.»

«ربما تبحثين عن صحبة شخص له اسم مشين مثلي فضلاً عن اتهامه بارتكاب جريمة شنعاء. أو ربما تراودك الرغبة في شخص خطير..»

وصمت قليلاً ثم استطرد يقول:

«اخبريني بأمر الحديث الذي استرقت السمع اليه... لم تقولي ماذا قالوا عن أخي؟ هل أشاروا الى وفاته؟»

أجابت وهي تخفي وجهها في راحتيها:

«أجل. أشاروا الى مقتله...»

وكانت كلماتها لاتكاد تسمع، لأن دموعها بدأت تترقرق وتسيل على وجنتيها ثم أردفت تقول:

«لانني يهم...»

أطلق جيس ضحكة ساخرة، وقال:

«ها لانني يهم... أعرف أنك شخصية متفائلة منذ التقيتك. ماذا يظن بنا الناس اذا عدنا سوياً الى الحفل والدموع تبلل وجهك؟»

أشاحت كرلي بوجهها جانباً، بينما سحب جيس الدخان من سيكارته ثم واصل حديثه:

«حسناً، دعيني أخبرك، أولاً انهم سيلاحظون صمتنا. وثانياً سيرون دموعك. وستكون مدعاة لاتهامنا. ومن المحتمل أن يتنحى بي أخوك جانباً. ويسألني عن أعماق، وستتنحي خالتك بك جانباً لتتقصى مدى علاقتك بي. واذا كنا سعيدي الحظ لن يرانا العم بن أما إن حدث ورآنا، فسينهض من مقعده المتحرك وينهال

عليك ضرباً لسوء سلوكك، ويصدر قراراً بألا تطأ قدماي أرض سافدج...»

وانفجرت الدموع في عيني كولي غزيرة اذ كان الجرح غائراً دامياً في أعماقها من جراء كلمات الازدراء الساخرة، وعندئذ تملكها الغضب، وقالت له بحدة:

«أرض سافدج! أرض سافدج! هذا ما يهمك فقط»

ثم شابت صوتها نبرة ازدراء وكأنها تلتقط الكلمات من جوفها، وهي تواصل حديثها قائلة:

«لم أعرف شخصاً يهتم بهذه الرقعة القذرة مثل اهتمامك أنت وجدك، أنكما سوف تقتتلان عليها ...»

وأحست كولي أن جيس قد بدا عملاقاً أمام عينيها وهو يشخص اليها بعينيه، فتجمدت أوصالها لقسوته بينما أشاح بوجهه عنها فبدت الندبة واضحة لعينيها. وأحست بالازدراء بعد أن صدرت عنها تلك الكلمات القاسية، فبدأت تقول له بتلعثم: «لم أقصد ... يا جيس... أقسم أنني...»

ولكنه قاطع كلماتها المتلعثمة قائلاً:

«أنت على حق... طابت ليلتك يا كولين.»

وأحست كولي بأن كلماته قد تعني أيضاً الوداع.. فوقفت صامتة بلا حراك بينما اتخذ جيس سبيله في الظلام الدامس، وشعرت بالحزن يمزق أوتار قلبها، وهي تدرك أنه لن توجد كلمات تستطيع أن تمحو آثار الكلمات القاسية التي تفوهت بها.

وأخيراً التقطت الوردة التي سقطت على الأرض، ووجدت أوراقها تمزقت كتمزق شغاف قلبها، لا شك أنه ضحك من أشواكها، لكن ترى ماذا يظن بها الآن! وانطلقت من بين شفتيها ضحكة هستيرية قصيرة ـ ثم دفنت رأسها بين ذراعيها، وقد استندت على شجرة البلوط وراحت تبكي...

٨ ـ ثمن المزرعة

انقضى شهر كامل على الحفل!

هذا ما فكرت فيه كولي وهي تنظر الى نفسها في المرآة، لكن صورة الحفل كانت لاتزال ماثلة أمامها، وكأن أحداثها جرت ليلة أمس. فهي تذكر كيف استجمعت شتات نفسها بعد الحديث الحاد بينها وبين جيس واتجهت لتنضم الى المدعوين، حتى لا يثير غيابها تساؤلهم!

أحست بسياط التأنيب تلهبها تلك الليلة، وبدت الأصوات الضاحكة، والمرح الدائر أشبه بكابوس يجثم فوق صدرها، ولم تجد في نفسها أدنى تجاوب مع محاولة توني أن يجذب اهتمامها ولا عجب من نظراتها التي كانت مسلطة على جيس وعلى فتاته نانيا ذات الشعر الأسود.

انقضى شهر على الحفل، وها هي الآن تكابد نتائجه. بالمرآة تعكس شعور اللامبالاة البادية في عينيها وما حول شفتيها من غضون وما أصاب قوامها من هزال. والحقيقة أن الجميع لاحظوا ما أصابها، فالخالة حارت أن تعرف ما يؤرق ابنة شقيقتها، أما توني فاعتراه الأنزعاج لفتورها امام تعليقاته. بينما كان العم بن الشخص الوحيد الذي أدرك السر، ولذلك تعمد أن يعهد اليها بأعمال تملأ فراغ يومها.. وكانت الساعات التي تقضيها معه تخفف من الآلام التي تشعرها، وتحس فيها أنها ترد له الجميل لقاء الهدوء الذي يبعثه في نفسها.

أما جيس فقد تعمد ان يتجاهل التغير الذي طرأ عليها، وكأنه يجد متعة في

الانتقام منها. فكان يبادر الى الانطلاق بجواده في الصباح الباكر ويغيب عن البيت يومين أو ثلاثة أيام، وكأن كاملة بنوء بالأعمال الثقيلة. ثم يتعمد الظهور في الأوقات التي تجلس مع العم بن حتى تسمع الكلمات القاسية المتبادلة بينهما، فلم تكن تشعر بالسلام الا في الأوقات التي يغيب فيها..

كان جيس فظاً في سلوكه، وتحوّل وجهه الى قطعة من الصخر الأصم وظلت ملامحه جامدة لا تتغير ولا تحمل سوى تعبير السخرية. أما نظراته فهي نظرات ثاقبة كنظرات الصقر وأدركت كولي ان اسم العائلة سافدج، أي متوحش... يلائمه تماماً!

وأحست كولي بالارهاق من احساسها بالذنب نحو جيس وهي تضع فرشاة الشعر على مائدة الزينة، وتذكرت ما حدث ليلة أمس عندما تحلقت الأسرة حول مائدة العشاء.. اذ احتدم النقاش حتى فقدت كولي السيطرة على مشاعرها فألقت ملعقتها في الطبق، ودفعت مقعدها بانفعال، تحدوها الرغبة العارمة في مغادرة الغرفة بسرعة. لكنها توقفت عند الباب حينما نادتها خالتها لتقدم اعتذارها الى جيس الذي رفع يده لتهدئة الموقف فبادرت الخالة قائلة:

«ولكن كولي لم تكلف نفسها حتى عناء الاستئذان»

احست كولي أن جيس انتصر عليها ثانية، فأحنت رأسها ثم انطلقت تجري لترتقي الدرجات المؤدية الى غرفتها.

انه أمر مضحك وهي تتأمل نفسها الآن في المرآة، كانت تود أن ترى نفسها شخصاً ناضجاً بدلاً من فتاة صغيرة تطاردها الأفكار المزعجة. انها تحس الآن بلك الحب كيوبيد، يسدد سهامه الي قلبها ويتركها مثخنة بالجراح بالرغم مما حدث.. فإنها مازالت تحب جيس.

وكان الأمل يراودها في أن يرفرف السلام على أفراد الأسرة، لكن المحاولات كانت تنتهي بالحرب! كم من معارك تترك مشتعلة قبل أن يوجد لها حل، وكيف يتحقق النصر مادامت الحرب دائرة؟

تطلعت كولي الى الساعة الموجودة على مائدة الزينة، وأدركت أن الوقت

حان لكي يتناول العم بن شاي الصباح. أصبح من عادتها في الفترة الأخيرة أن تحمل اليه الشاي، وأصبحت المكتبة مكانها المفضل بما تبعثه في نفسها من هدوء، بل أنها لم تعد تهتم بازاحة الستائر لتدع أشعة الشمس تتسلل الى الغرفة.

سارت كولي بهدوء وهي تتخذ سبيلها الى المطبخ، لأنها تعرف أن مالي أعدت الصينية، وأن كل ما عليها هو أن تحملها الى العم بن. وفعلاً حملت الصينية وسارت بهدوء حيث وضعتها على المكتب. وبعد أن سكبت الشاي، ألقت بجسمها على المقعد الوثير، وقال العم بن بدون أن يرفع بصره عن دفاتره:

«اذا حقق التطبيع ثمناً غالياً، سوف نكسب عائداً كبيراً هذا العام»

ولكنه اكتشف أمر كولي، كانت شاردة الذهن، ولم ترفع بصرها عن البخار المتصاعد من فنجانها. وهنا سألها:

«حسناً، ألا تودين التفوه بشيء؟»

أجابت كولي وهي تتذكر ما يقوله:

«ماذا؟ أوه... أجل... سيحقق ثمناً كبيراً»

راح العم بن يحدق فيها، ويقول لها وهو يهز رأسه الأشيب:

«حماسك أقلقني... ولن يطول بك الأمر حتى تبادري بالتعبير عن تفتك الزائفة بجيس. هل عرفت أخيراً حقيقة ناظر الزراعة هذا المجرد من المبادىء الخلقية... والذي يعمل عندي»

اعتدلت كولي في جلستها، وقد أخذت بالوصف الذي يصف به العم حفيده، وقالت له بهدوء وهي تحاول أن تغير دفة الحديث:

«أرجوك... ياعمي... الشاي سيبرد»

قال بن مزمجراً:

«لا تغيري دفة الحديث، عندما أسأل سؤالاً، أتوقع أن أتلقى جواباً عنه...»

رفعت كولي فنجان الشاي لتخفي الرجفة التي اعترت شفتيه، ثم قالت له:

«ألا يكفي الشجار الدائر في هذا المنزل...».

قال الرجل المسن:

«ما بالك يا طفلتي؟ هل أصبحت تؤمنين بعدم وجود الذئب وسط قطيع الغنم؟ حان الوقت لأن تتوقفي عن رؤية جيس في صورة الفارس، وأن تعرفيه على حقيقته. انه رجل قاس يؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة ولكنه لم يفز بعد بمزرعة سلاش أس، أليس كذلك؟»

وضعت كولي فنجان الشاي على المنضدة ثم قالت:

« جيس ليس مسؤولاً عن قتل أحد، أيّ جد أنت حينما تجلس هكذا، وتخبرني بأنك مؤمن بإنسان من لحمك ودمك يمكن أن يدع أخاه يموت؟ »

مال العم بن الى الأمام لترى كولي ابتسامة شيطانية ارتسمت في عينيه، ثم قال:

«الجلد السميك لم يعد سميكاً. أصبحت أراك امرأة فقدت القدرة على الكلام وحرية الارادة، ولقد استقر رأيي هذا عندما رأيتك ليلة أمس وأنت تغادرين غرفة الطعام. كنت كالدجاجة التي تفر من السكين..»

قالت كولي:

«هذه أول أسرة ألتقي بها.. أفرادها مصابون بالسادية.. يجدون سعادتهم في تعذيب الآخرين».

دفع بن مقعده المتحرك من وراء المكتب، وقال:

«الغضب يحل عقدة اللسان. ويدع الحقيقة تتدفق».

قالت كولي وهي تهز رأسها ببطء:

«كلا... الغضب يلهب الجروح القديمة، ليمنعها من أن تلتئم».

«هل شعارك المغفرة والنسيان؟»

أجابت كولي بهدوء:

«اذا لم تستطع المغفرة، فأنت لا تستطيع النسيان والعكس صحيح».

سألها بن فجأة:

«وهذا ما تتوقعين مني أن أفعله. أليس كذلك؟ هل تتوقعين مني أن أنسى اللحظة التي وقف فيها جيس تاركاً أخاه يموت، لأنه يعرف أن ريك سيرث المزرعة وتتصورين بعد ذلك أنني سوف أفتح ذراعيّ مرحباً به؟»

صاحت كولي قائلة:

«لكن جيس لم يفعل ذلك».

قال العم بن ساخراً:

«هذا ما يحدثك به قلبك.. وليس عقلك».

تركت كولي مقعدها، وكل جسمها يرتجف، لتقف أمام العم بن وشرر الغضب يتطاير من عينيها، وتقول له:

«أجل، أجل، ان قلبي هو الذي يحدثني، أنني أحبه حباً كبيراً الى الحد الذي لا تهمني معه حقيقة ما اذا قتل أخاه أو لم يقتله. سأتزوجه غداً اذا طلب يدي، ولو فكرت لحظة في أن أعده بعيداً عن هنا، لما ترددت. لكنني أفعل، لأنك نجحت في أن تثقل كاهله بذنب مصرع أخيه، وأصدر هو حكماً على نفسه بأن يظل رهين سجنك فأصبح يعيش مع جده الذي يكرهه ويعجز عن الفرار من اتهامك الرهيب له بأنه قاتل. كم هو قاس عقابك تنزله به... هناك الثور... ذلك الحيوان الأخرس الذي قتل حفيدك، وترك ندبة دائمة على وجه الحفيد الذي حاول أن ينقذ أخاه. هل أنت مصر على أن تنتزع رطلاً من اللحم من جسد حفيدك الحيّ؟ أعتقد أنك شخص كريه... ثم أنني أعجب كيف يؤيد الآخرون - فيا عدا جيس طبعاً، رأيك. وليكن في علمك أنه لا شيء يضطرني للبقاء هنا في هذا المنزل... سوى وجود جيس!»

صاح بن وقد تضرج وجهه بالغضب:

«كفي انك لا تدركين شيئاً عما تتحدثين عنه... لم تكوني موجودة ليلة مصرع ريك ولم تحتوي جسمه بين ذراعيك بينما كان يلفظ أنفاسه أمام عينيك. كيف يحق لك أن تتصوري حكمك علي وأنت لا تعرفين ما حدث تلك الليلة؟»

قالت كولي بغضب:

«أعرف ما حدث، اخبرني توني بكل التفاصيل، أخبرني كيف ترجه ريك

الى المدينة وعاد متحمساً، وامتطى الثور ثم راح يدور به داخل الحظيرة... يتأرجح فوقه كما يفعل فرسان لعبة الروديو، ان ريك هو قاتل نفسه بالتأكيد استدعت صيحاته جيس ولكن أين كان باقي أفراد الأسرة أثناء الحادث؟ أنت بلا شك كنت مستلقياً في فراشك، ولم تسمع حفيدك في الوقت الذي هرع فيه جيس الى أخيه بعد حدوث الفاجعة... وبعد كل ذلك تتهم جيس بأنه جبان وقاتل، كلا... انه قفز الى الحلبة، ونال طعنة في وجهه من الثور الهائج، وهو يحاول أن ينقذ أخاه. لا تقل لي أنني لا أعرف ماذا حدث».

أعمى الغضب عيني كورلي فلم تر الشحوب الذي ملأ وجه بن، والغضون الزرقاء التي أحاطت بشفتيه وهو يحملق مبهوتاً في وجهها . وأخيراً قال العم الكهل بصوت خافت محطم:

«ولكن ريك قال... انه ظل يطلب من جيس ألا يقف مكتوف اليدين وأن يسارع الى نجدته، مات وهو ينادي جيس».

صاحت كورلي قائلة بمرارة:

«بالطبع كان ينادي جيس، لأنه أخوه... أليس كذلك؟»

سأل العم بن بصوت هامس:

«اذا لم يكن جيس هو الذي سارع لنجدته، فمن يكون اذن الشخص الذي كان واقفاً أمام ريك؟»

أجابت كورلي بسخرية قبل أن تتركه:

«لا أعرف... من المحتمل أن يكون وهماً في خياله».

وبغتة حدثت انتفاضة مفاجئة صدرت من مقعد بن جذبت انتباه كورلي، وفزعت لدى رؤيتها وجهه الشاحب وقد غاب عن وعيه فهمست قائلة:

«عمي بن... عمي بن...»

وادركت على الفور أن أزمة قلبية قد داهمته، فصاحت تطلب المساعدة، والقلة غادرت الغرفة تصرخ بجنون منادية ماغي والخالة وأقبلت ماغي على جناح السرعة، لتجد كورلي واقفة وسط الصالة تشرح لها ما حدث، وذهبت

ماغي تطلب الطبيب هاتفياً، بينما عادت كورلي اليه.

وعندما دخلت الغرفة، توقفت فجأة، اذ لم تجد بن جالساً على مقعده المتحرك، وتناهى الى سمعها صوت كان صادراً من أحد جوانب الغرفة. فاستدارت لترى بن راقداً على أريكة بينما جيس يضرب صدر جده بقبضة يده:

صاحت كورلي قائلة:

« جيس... لا تفعل هذا، لا... لا تفعل... لا تقتله... أرجوك يا جيس».

صاح جيس بغضب:

«كفى يا كورلي، قلبه توقف... انني أحاول انقاذه...»

التقطت كورلي أنفاسها، عندما أدركت أن جيس يحاول تدليك القلب، بينما هي تتهمه بمحاولة قتل جده، وبحثت عن مقعد، وعندما وجدته، ألقت بجسمها عليه، ودموعها تجمدت على وجنتيها وهي تتابع بيأس محاولات جيس المستميتة لانقاذ جده، وسألت نفسها: ماذا حدث لو مات بن؟ انها المسؤولة عن ذلك؟ وبذلت جهوداً مضنية لتحول دون وقوعها فريسة الجنون

تطلعت الى جيس وهمست قائلة:

«أنا المخطئة... أنه سيموت... انها خطيئتي...»

أخذ يعنفها، وهو يقول لها:

«لا تشغليني بهوسك وجنونك... اذهبي وتأكدي أن الطبيب في طريقه الينا».

هزت رأسها وكأنها أفاقت من صفعة على وجهها، وسألت نفسها «ماذا تريد؟ هل تطلب الرأفة من جيس؟ وتعثرت قدماها فاصطدمت بالخالة التي أقبلت مسرعة وهي تندفع الى الغرفة وتتوجه الى الأريكة.

أحست كورلي أن أحداً لا يحتاج اليها أو يرغب في وجودها، فراحت تتعثر في خطواتها وهي تتخذ سبيلها الى غرفتها. وكانت الدموع المنهمرة تحجب الرؤية عن عينيها، وعندما ارتمت على فراشها، راحت تنتحب بحرارة... خجلا من جريمتها.

ولم تعرف كم من الوقت ظلت راقدة في فراشها، وانما أفاقت على صوت الباب وهو يفتح، وتخيلت العم بن ميتاً، وقد أتوا يخبروها فأغلقت عينيها ثم راحت

تفتحهما على مهل، وتدير رأسها في اتجاه وقع خطوات الشخص القادم... الذي وقف الى جوار فراشها.

رفعت عينيها فرأت جيس ينظر اليها، وقد بدت تعاسته واضحة على وجنته، فصاحت به تسأله:

«مات... أليس كذلك؟ أنا قتلته؛ أنا قتلته!».

ثم تهاوت ثانية على الفراش، والدموع تنهمر على خديها؛ وشعرت به يجلس الى جوارها، ولم تستطع أن تمنع نفسها من النحيب عندما أمسك كتفيها بيديه، وجذبها قريباً من وجهه، ثم قال بهدوء:

«سيتغلب على الأزمة؛ انه حي... وسيتغلب على الأزمة».

واجتاحتها فرحة، فراحت تجفف دمعها ونظراتها تطلب منه تأكيداً لكلماته:

«لو أنه مات لما غفرت ذلك لنفسي».

أخذ جيس يمسح الدموع عن خديها، ثم قال لها:

«لا داعي للتفكير في هذا الموضوع».

حاولت أن توضح له مدى العبء الذي ينوء به كاهلها، فقالت باصرار:

«لكنني أنا الملومة. كنا نتناقش... واتهمته بارتكاب أشياء رهيبة. هذا ما جرى مني عندما حدثت...».

قطّب حاجبيه عند سماعه كلماتها، وقال لها:

«لا أتصور أنني في حاجة لأسألك عن فحوى المناقشة. أليس كذلك؟».

ثم نهض يغادر مكانه، فقالت له بهدوء:

«كان حديثنا يدور حول مصرع ريك».

فأشاح بوجهه عنها وهو يتكلم بمرارة:

«كم مرة طلبت منك ألا تتدخلي في هذا الموضوع».

قالت:

«لم أستطع... ولا أستطيع أن أمنع نفسي من التدخل... وأنت تعرف السبب».

عاد يحدق فيها قائلاً:

«حسناً، لن تتدخلي ثانية... لأن السبب الذي يراودك، لم يعد له وجود».

أجابت قائلة وهي ترفع رأسها في شموخ:

«أعرف ذلك، لأنني دمرت بكلماتي الحمقاء كل شعور يمكن أن تكنه لي، وفي هذا الصباح، كان عدم ادراكي لمحاولتك انقاذ بين قد أتى على البقية الباقية. ولكن هذا لن يوقف رغبتي في أن أراك أنت وجدك تعيشان في سلام. لا أظن أنني سأستسلم بسهولة».

قال جيس:

«الآن... أعرف أن بين بدأ في التحسن... واذا رأيتك تتدخلين بيني وبينه فـ...».

ولكنه لم يستطع مواصلة حديثه اذ سمع دقات على باب الغرفة، فأسرع الى فتحه، ووجد داني واقفاً في قلق واضح يتطلع الى كرلي قبل أن يوجه حديثه الى جيس قائلاً:

«انه يريد رؤيتك... وأنت يا كرلي أيضاً».

أمسك جيس بذراع كرلي وراحا يهبطان درجات السلم الذي يفضي الى الصالة حيث وجدا في انتظارهما شخص صارم الوجه. انه الطبيب الذي تحدث الى جيس قائلاً:

«حالته أفضل يا جايسون... كنت أريد نقله الى المستشفى لكن صحته لا تحتمل مجهود الانتقال. يسألني عنك وعن الفتاة. اذهبا اليه ولا تمكثا أكثر من دقائق قليلة، وأطلب منكما تركه على الفور اذا اعتراه اضطراب».

قالت كرلي لـ جيس:

«خيل اليّ أنك قلت صحته ستتحسن...».

صحح جيس عبارتها:

«قلت انه حيّ... وأنه سيتغلب على الأزمة. انه واحد من أفراد عائلة سافدج بعد كل شيء».

حدق الطبيب في وجه جيس وقال:

ولم يعد يكترث سواء عاش أم مات، أرجو منك مخلصاً أن تحمله على أن يعدل عن رغبته في التخلص من حياته».

كان الاضطراب بادياً على كولي وهي تسير بصحبة جيس في طريقهما الى العم بن. كانت ساقاها لا يقويان على حملها وهي تقترب من حافة الفراش حيث يرقد الرجل الكهل، وتحيط بجسمه خيمة الأوكسجين البلاستيكية، ولاحظت أن صدره يرتفع ويهبط، وأنفاسه تتلاحق، ثم تطلعت فوجدت وجهه شاحباً وعينيه مغمضتين، وعندما سمع وقعهما رفع جفنيه، وأشار بيده أن يقتربا منه حتى لا يبذل جهداً كبيراً في الكلام، وهمس قائلاً:

«كولي... يا طفلتي... لا تلومي نفسك على ما حدث... هل تسمعين؟»

أجابت كولي:

«أجل... يا عمي بن».

وتطلع الى جيس هامساً:

«اعرف أنك أنقذت حياتي».

قال جيس:

«من واجبي أن أفعل يا بن برغم أنني لم أعرف بعد اذا غيرت وصيتك لصالحي أم لا».

حدقت كولي في وجه جيس وقالت وهي لاهثة الأنفاس:

«ما هذا الكلام يا جيس؟»

ثم حولت بصرها الى بن فشاهدت ابتسامة واهنة على شفتيه وقد تألقت عيناه وهو يهمس قائلاً:

«لن تملك سلاش أس...»

ثم لوّح بيده واستطرد يقول:

«اذهبا الآن اتركا الرجل الكهل يموت بسلام».

قال جيس ساخراً:

«مثلك لا يموت بسهولة يا بن...»

قال بن:

«ستتحدث فيما بعد... أريد أن استريح الآن».

قال جيس بصوت حاد تردد صداه في الغرفة:

«أمرك يا بن ستتحدث فيما بعد... وسأمتلك سلاش أس».

ولم ينتظر جيس اجابة الكهل، وانما أمسك بذراع كولي وقادها الى خارج الغرفة، وكانت قبضته حازمة على ذراعها، وقد حرص على أن تقف الى جواره وهو يتحدث الى الطبيب، رافضاً أن تلتقي عيناه بنظراتها الفزعة. ولم تحاول أن تسمع الحديث الذي دار بينه وبين الطبيب، لكنها كانت تتساءل: لماذا لم يحاول أن يشيع جيس السكينة في قلب جده؟ ولماذا أصرّ على السخرية من الكهل وهو على فراش الموت؟ كان على جيس أن ينتهز فرصة النوبة التي أصابت بن فيبادر الى مصالحته بدلاً من أن يعلن بدء جولة جديدة من الحرب.

أطلق ذراعها من قبضته، عندما اتخذا سبيلهما الى غرفتها وكانت في حالة لا تسمح لها بالحديث أو الاعتراض، وعندما دخلا الغرفة أغلق الباب وراءه، ثم قال بعبوس:

«الآن... فلنعد الى موضوعنا...».

ووجدت كولي الكلمات تنطلق من فمها متسائلة:

«لماذا تحدثت معه بهذا الأسلوب؟»

سألها بغضب:

«لماذا تظنين أنني تحدثت معه هكذا؟»

قالت:

«لا أعرف، ولهذا السبب أسألك! ربما كان يصفح عنك، لو أنك طلبت منه ذلك».

قال بحدة:

«ربما لا أرغب في غفرانه... وربما لا أرغب في أن أكون ضالعاً بدور في مسرحية وفاته... كلا... لن أكون شريكاً في مساعدة صنع تبرم في آخر لحظة من حياته».

صاحت كولي قائلة:

«حسناً... تمسك بكبريائك الحمقاء، واجعلها تعترض سبيلك اذا شئت...»

وتوقفت عن مواصلة الحديث.. اذ ارتج صوتها باضطراب عواطفها ولم تسترد أنفاسها الا عندما جذبها جيس اليه، فاستطردت تقول له:

«هل كان دافعك الى انقاذه، رغبتك في أن تقول له أنك تريد المزرعة لنفسك؟ ألم يكن في وسعك أن توفر عليه هذا العناء؟»

أنشب أصابعه في كتفها، وكأنه يريد أن يهزها لتستعيد حواسها ثم أجاب قائلاً:

«كلا.. كلا. كنت أريد أن أتأكد أنه مازال حياً. الكراهية قد تدفعك الى الطريق الذي يدفعك اليه الحب. واذا كانت الكراهية تستطيع أن تستعيده من مخالب الموت، اذن دعيه يكرهني، واتركيه يقتات عليها، وينام على وسائدها، ولكنه يفعل كل هذا وهو حي»

أخلى سبيلها، فسقطت على الفراش، ثم غادر الغرفة، وخلال دقائق، اندفع داني وكان يبادي القلق على أخته، ولذلك سألها على الفور:

«ماذا حدث؟ ماذا فعل؟»

أجابت كرولي بخشونة:

«لا شيء... يا داني أنا التي أخطأت في حقه وفي حق العم بن»

واقترب داني منها محاولاً أن يقرأ توضيحاً للأمر على ملامح وجهها لكنه فشل في محاولته فقال لها:

«لا أفهم كلامك...»

فقالت كرولي وعلى شفتيها ابتسامة صغيرة:

«أعرف أنك لا تدرك قصدي، أطلب منك أن تتركني وحدي»

بدت الحيرة والارتباك على داني لكنه امتثل لرغبة شقيقته وتركها وحدها في الغرفة.

ومضى أسبوع، واستقرت فيه حالة العم بن، حسب رأي الطبيب المعالج، وقالت كرولي ان الكهل تجاوز مرحلة الخطر وفي طريقه الى الشفاء. انه ضعيف، لكنه في وسعه أن يهدأ ويتوعد اذا تطلب الأمر منه أن يفعل ذلك.

وخلال هذا الاسبوع لم يحاول جيس أن يطأ قرب الكهل وقد سمعته كرولي مرات يسأل الخالة عنه، لكنه لم يحاول أن يدخل للسؤال أو يسأل كرولي نفسها، رغم أنه يعلم تماماً أنها تمضي وقتاً طويلاً بصحبته.. تقرأ له أو تتحدث اليه، ولم يحاول جيس أن يقدر أراءها حق قدرها ومع ذلك فهي لا تلومه. ألم تخطئ الحكم عليه عندما رأته يضرب بقبضته صدر بن محاولاً انقاذ حياته؟ وكان الكهل أبياً للغاية، معتزاً بكرامته، فلم يسأل عن حفيده. لكن كرولي كانت تخبره بأن جيس سيأتي لرؤيته، وكانت عيناها تتألقان فرحاً عندما تسمع طرقاً على الباب، فتتوهم أن القادم هو جيس، وسرعان ما تخبو الفرحة في مهدها حينما تجد شخصاً آخر غيره. وكان من عادة الطبيب زيارة المريض كل صباح، ثم يعهد للممرضة القيام بباقي المهام.

وذات صباح انتظرت كرولي حتى أضحى النهار، فقامت وتوجهت الى غرفتها للاستحمام واستبدال ملابسها، قبل أن تهبط لمساعدة الخالة و ماغي في اعداد الطعام. وكان صوت وقع حذائها على الأرض الخشبية للشرفة عالياً فبدد السكون الذي يسود المكان، وفتحت كرولي الباب المؤدي - الى المنزل، فوجدت ماغي قد جالت في أرجاء المنزل وأسدلت الستائر حتى تمنع شمس تكساس اللافحة أن تلهب النوافذ بحرارتها.

وعبر الصالة تردد صدى وقع أقدام تطأ الأرض، ثم صوت باب يفتح، فتنبهت كرولي لحظة عند نهاية درجات السلم. انها تعرف أن الطبيب أتى وذهب منذ قليل، ومن واجبها رؤية بن للسؤال عنه وخاصة أن الكهل تثور أعصابه عقب كل زيارة يقوم بها الطبيب. وهو الآن وحده لأن الخالة تمضي الصباح في حديقتها، و ماغي مشغولة باعداد الطعام. عندئذ تذكرت صوت وقع الأقدام في الممر، ومن المحتمل أن يكون هذا الشخص يقوم الآن - بزيارة بن وعليها أن تتلصص للتأكد من ذلك وبهدوء اجتازت الصالة حتى اقتربت من مكتب بن فوجدت بابه مفتوحاً على مصراعيه فتسللت بهدوء ثم تطلعت متهيبة خلال باب غرفة نومه، فوجدته مفتوحاً قليلاً، وتناهى الى سمعها صوت

بن يتردد في الغرفة، وأدركت أنه بصحبة أحد الأشخاص وأنه لاحاجة لوجودها. وحينما شرعت في الذهاب سمعت صوت الشخص الآخر يتكلم وعرفت صاحبه على الفور. كان المتحدث هو جيس وانتابتها فجأة الرغبة في سماع ما يدور بينهما، فسارت على أطراف أصابعها حتى دنت من الباب، وسمعت صوت بن يقول:

«حسناً.. لا تجلس اذا كنت ترغب في أن تتطاول على رجل مسن مريض مثلي...»

قال جيس بهدوء:

«ربما تكون مريضاً، وربما تكون مسناً، ولكنك مازلت رجلاً يا بن... جئت لمناقشتك في أمر المزرعة».

«حسناً.. لا أريد أن أتحدث الآن في موضوع المزرعة.. هذا يدهشك أليس كذلك؟»

«لا شيء يدهشني».

«وانما أردت أن أتحدث معك في موضوع كول...»

وتوتر جسم كول عندما سمعت كلمات بن وأحست بعقلها يحاول جاهداً أن يحدد ما سوف يقوله الكهل. وطرق سمعها صوت جيس يتساءل:

« كول...»

«أجل. كول، أنها متيمة بك، متدلهة بحبك، هل تعرف ذلك؟»

شعرت كول بقلبها تتابع خفقاته، وخشيت أن يسمعا دقاته فحاولت أن تهدىء من اضطراب عواطفها وأرهفت أذنيها، فسمعت جيس يقول:

«وأنت تتساءل ما هي نواياي تجاهها؟ أليس هذا الأمر من شؤوني الخاصة؟»

أجاب بن:

«ربما.. وانما ما يهمني هو عواطفك نحوها».

سأله جيس:

«وهل تظن أنني أهتم بها؟ دعني أؤكد لك أنني لا أفعل ذلك، فعندما جاءت الى هنا، كانت فتاة خجولة وصغيرة، ولكنها الآن كبرت ونضجت».

وخيم الصمت هنيهة. ويبدو أن بن كان ينتظر من جيس أن يواصل حديثه، وأخيراً قال الكهل:

«أعتقد أنها مفتونة بك، هل فكرت في الزواج منها؟»

قال جيس بحدة:

«لعبت معك لعبة استغرقت وقتاً طويلاً.. ولن أجيب على أسئلتك قبل أن تخبرني الى أين يفضي بنا الحديث؟»

وسمعت كول خشخشة أوراق تتردد في الغرفة، قبل أن يقطع الصمت صوت جيس وهو يقول:

«هل هذه الأوراق معدة لكي تصبح سلاش أس ملكاً لي؟ هل يمكنك أن توضح الأمر؟»

«الأمر في منتهى البساطة، اذا تزوجت كول، فالمزرعة تصبح ملكاً لك ولا تحتاج الأوراق شيئاً سوى توقيعي وتوقيع الخالة و سالي كشاهدتين».

عضت كول على شفتيها حتى تمنع نفسها من البكاء، فقد اكتشفت المهانة التي أذلت كرامتها أمام جيس فان بن يطلب رطلاً منها حتى ينال جيس مغفرته، وسمعت صوت جيسون البارد يخترق جدران الغرفة متسائلاً:

«لماذا؟»

قال بن:

«تقول لماذا؟! لأنك تريد المزرعة، أرجو أن تكن لها بعض العواطف فان الزيجات تنجح اذا توفرت لها الامكانيات اللازمة...»

فقال جيس وهو لاهث الأنفاس:

«ولكنها صغيرة للغاية».

أجاب الكهل:

«انها امرأة... فلا تخطىء في ذلك، قد لا تكون ممتلئة الجسم، ولكن عواطفها جياشة».

«وأنت لم تجب على سؤالي بعد. لماذا تفعل كل هذا؟»

«تعلمت تماماً بكولي في الأسابيع السابقة. وأريد أن أراها تنال كل ما تتمناه. إنها جدي بذرة عن الحق... وهذا ما أعجبني فيها والسبب لا يعرف كنهه أحد سوى السماء. أجد الفتاة تريدك وسأعاونها على تحقيق رغبتها بكل طاقتي.»

راحت كولي تلوه كالقطة وهي تحدث نفسها في صمت:

«أوه... بن أرجوك لا تفعل ذلك... لا تجعل المزرعة جائزة تمنحها لجيس»

وقطع صوت بن تفكيرها وهو يقول:

«لا حاجة بها أن تعرف فأنا لن أخبرها وأنت بدورك لا تخبرها.»

وافق جيس قائلاً:

«لا لن أفعل ذلك...»

وعندئذ أسرعت كولي تغادر مكانها والدموع تترقرق في عينيها وأخذت سبيلها الى الصالة، حتى بلغت ساعة الحائط المعلقة عند نهاية درجات السلم فاستندت عليها تلتقط أنفاسها. وتكف أفكارها عن الهذيان... ها هي الآن تصبح الأداة التي تنجز هذه المهمة. وأحست بالألم يمزق قلبها. يا لها من مهزلة... فالكهل يسدد انتقامه الأخير. يتوهم أنه يوفر السعادة لكولي بزواجها من جيس، ومتى وافق جيس على رغبة جده، ينال المزرعة بينما كولي تتمنى أن يرفرف السلام على أفراد الأسرة، وأن تصبح زوجة جيسون... يا له من ثمن يدفعه الثلاثة...

ولم تدرك كولي كم من الوقت مضى عليها وهي واقفة الى جوار السلم. كانت أفكارها تتأرجح مثل حركة رقاص الساعة التي تستند اليها، وأدركت فجأة أن شخصاً يشاهدها وهي في حالتها هذه، ولن يتيح لها عقلها المضطرب أن تجد عذراً معقولاً تبرر به وجودها. لذلك هرعت ترتقي الدرجات... لكنها قبل أن تصل الى غرفتها، سمعت صوت جيسون ينادي الخالة و ماغي للحضور الى غرفة بن...

٩ ـ الكوخ... من جديد

لم يخطر ببال كولي أنها ستشعر يوماً بمرارة الى هذا الحد، غير أن الألم، والاذلال أخذا بالتضاؤل والدموع توقفت وفجأة أحست بالأسف على نفسها... لأنها افتقدت السعادة خلال أيام الدراسة، وضحت بنفسها من أجل لمريض أمها، وعاشت حياتها تعتمد على الآخرين، وأخيراً دفعتها الأيام القاسية كي تأتي الى هذه المزرعة. وأنتابها شعور بالكراهية ضد هذا العالم... هذا العالم الذي يضم أناساً يعيشون على الخداع والحقد، ولكن أكثر شيء، كرهته في هذه اللحظة تلك الرغبة المتأججة التي أخذت تموج في صدرها لكي تؤذي أحداً... انها رغبة محرقة تعيش في أعماقها وقد أحست بها وهي تهبط الدرجات، وتتخذ سبيلها الى غرفة الطعام لتتناول العشاء.

وكانت قد اعتذرت عن تناول الغداء بسبب صداع طارىء، دهمها، وظلت منزوية في غرفتها طوال فترة العصر... وأحست أن دقات قلبها سوف تفضح كذبتها البيضاء، وشحوب وجهها سوف يكشف عن استراقها الحديث الذي دار هذا الصباح، فبذلت جهدها لأن تهدىء من روعها وتقنع نفسها بأن أحداً لن يسألها توضيحاً عن سبب غيابها.

ولما دخلت غرفة الطعام، سألتها الخالة ليلي:

«ها أنت قد جئت لتناول الطعام هنا.. خشيت أن تلازمك الوعكة وأن تطلبي طعامك الى غرفتك»

تمتمت كولي قائلة:

«لا، إنني أشعر بتحسن هذا المساء...»

وشعرت بصدمة ارتج لها جسمها عندما وقع بصرها على جيس جالساً على رأس المائدة في المكان الذي يشغله عادة بن. وعندما أفاقت من المفاجأة، حدثت نفسها قائلة المكان يناسبه تماماً.

واستطردت تقول بصوت مرتفع:

«أظن أنني أصبت بضربة شمس هذا الصباح».

وراحت تحتل مقعد داني كي تتجنب الجلوس على مقعدها المعتاد الذي يقع على يسار جيسون ورأت بن جالساً في مقعده المتحرك الى يمين جيس وحدق الكهل وكأنه يطلب منها أن تجلس بينه وبين حفيده، لكنها لم تشأ تحقيق رغبته، كما لم تحاول أن يلتقي بصرها ببصر جيس لئلا يرى الألم والمرارة في عينيها، وجاهدت لترسم ابتسامة على شفتيها وراحت تسأل خالتها عن ورودها وهي تعرف مسبقاً أنها سوف تتحدث حديثاً طويلاً يستغرق الدقائق التالية القليلة.

ولم تشعر كولي بمذاق الطعام أثناء تناوله وانما راحت تزدرده... مسلوبة اللب، وبين الفينة والأخرى تختلس النظر لترى ماذا يفعل جيس، وعندما فرغوا من تناول الطعام جاءت ماغي ترفع الأطباق وتحضر الحلوى، فقال لها بن:

«سنتناول الحلوى في الشرفة يا ماغي وأحضري أيضاً بعض الشراب اذ حان الوقت لنقيم احتفالاً صغيراً».

أخذ قلب كولي يدق في صدرها عند سماع هذه الكلمات، وشعرت أنها لن تقوى على سماع بن يعلن انتقال ملكية المزرعة الى جيس ليكون هو المالك الجديد.

انتفضت كولي واقفة، لتبتعد عن المائدة ثم قالت بصوت ينمّ عن اضطرابها:

«اسمحوا لي أن أغادر الغرفة، فأنا في حاجة الى بعض الهواء، سأنضم اليكم فيما

بعد»

وأثارت رغبتها في الرحيل غضب بن، لكنها اسرعت تجتاز باب الغرفة، وتتجه الى الشرفة، ثم تواصل سيرها في الحديقة قبل أن يناديها أحد. وراحت تبحث عن ملاذ لها بين أشجار البلوط واستندت الى أحد جذوعها، وأغمضت عينيها، وراحت تتصوّر ما سيحدث. الآن ستدفع رطلاً من بدنها ثمناً للمزرعة وتساءلت: هل من العدل أن يكون قلبها هو هذا الرطل؟ هل هي ضحية لتقبل قدرها بمثل هذه السهولة؟ وأجابتها المرارة التي تموج في أعماقها قائلة: لا... لا يجب أن تجعل جيس يشعر بالألم وخيبة الأمل اللذين شعرت بهما!

وعندما فتحت عينيها، كان قد قرّ عزمها على ألا تجعل انتصاره عليها أمراً سهلاً... فلن تكون الأداة التي ينال بها سلاش أس. وطرق سمعها وقع خطوات تقترب منها. كانت تعرف أنه سيأتي للبحث عنها، فهو لا يستطيع أن يحقق شروط اتفاقيته مع جده ما لم يتحدث معها على انفراد. وكان هذا السبب هو الذي حفزها على مغادرة المائدة، عارفة أنه سيبحث عنها، وبذلك كانت تدفعه الى المبادرة... ووفقاً لشروطها هي.

أقبل جيس حتى وقف الى جوارها، وقال لها:

«أنت هنا؟ لماذا تركت المائدة فجأة؟»

أجابت كولي وهي تبتعد عنه.

«كنت قلقة وفي حاجة الى بعض الهواء».

واقترب منها واضعاً يده على كتفيها، لكنها تراجعت قليلاً. فقال لها بحزم:

«كولي أريد أن أتكلم معك...»

هزت كولي كتفيها لتبعد يده عنها، وقالت:

«ليس لدينا أي موضوع نتكلم فيه...»

حاول أن يتحكم بأعصابه وهو يقول:

«كلي، اننا نعيش في توتر دائم طوال الأسبوع الماضي.. ولكن شيئاً حدث اليوم يمسك أمره.

تجاهلته تماماً وشرعت تسير نحو حديقة الزهور، وكانت تعرف أنها تتعمد تعذيبه، وتعلم أنه سيطلب يدها، لكنها قررت أن تكون أملاً عزيزاً بالنسبة اليه، ولم تكن تدرك الى أي مدى ستلحق الأذى به. وأفاقت على وقع قدميه وهو يلحق بها، ولمعت عيناها... عندما أدركت مدى عبثها بصبره.

قال لها وهو يحدق في عينيها:

«يبدو أننا نستمتع هذا المساء بليلة قمرية».

قالت:

«أجل...»

ثم تطلعت الى القمر الشاحب في كبد السماء، وأردفت تقول:

«ولكن يبدو عليلاً... انه لا يجعلنا نشعر بشاعرية المكان».

وأحس جيمس بنبرة السخرية في كلماتها، فأمسك ذراعيها بعنف وجذبها نحوه لتكون في مواجهته، ثم سألها بحدة:

«ما بالك يا كولي؟ لماذا هذه المرارة التي تتحدثين بها؟»

قالت كولي وهي تنظر اليه بجسارة:

«كنت أظن أنك ستكون سعيداً بمداعباتي...»

وبالرغم من أنها كانت تشعر بقلبها يتمزق في هذه اللحظة، لكنها كانت سعيدة برؤية علامات الغضب التي ارتسمت في وجهه ويتشنج أصابعه على كتفيها، وواصلت حديثها الساخر، فقالت له:

«ما لي أراك تصمت؟ هل ألتهمت القطة لسانك؟»

تراخت أصابعه عن كتفيها، ثم قال:

«يمكنني أن أهزك حتى ترتج أسنانك. أي نوع من الألعاب تلعبينه؟ هل ترغبين في أن ألقي بك على ركبتي واضربك على قفاك؟ أنك تسلكين مسلك الأطفال».

حاولت أن تتخلص من ذراعيه، وهي تقول له:

«أنت يا جيمس دأبت على أن تقول أنني طفلة».

«لا داعي للمحاورة... يا كولي..»

سألته بسخرية:

«ألا ترغب في أن تخبرني الى أي مدى تحبني،وتعبدني؟ وكيف أنك لا تحتمل الصبر حتى تتزوجني؟ انني أتحرّق شوقاً لهذا الجزء من المسرحية؟»

حاول أن يخفي غضبه، وهو يقول:

«عم تتحدثين؟ أين كنت هذا الصباح؟»

لوحت كولي بيدها نحو السماء، وهي تحاول أن تغير دفة الحديث:

«أوه... جيمس... الليل قصير، ورائحة الزهور تعبق المكان... وبالتأكيد في وسعك أن تطرح أسئلة أكثر شاعرية من هذه الأسئلة التي توجهها اليّ»

«ما هو القدر الذي سمعته هذا الصباح؟»

«لا تخبرني بأنني سوف أتقلد منصب الأستاذ هذه الليلة».

وشرعت تمد ذراعيها لتحيط بهما عنقه، وترفع وجهها نحوه، بخفة وببرود، وسقطت ذراعاه لتحيطا بخصرها وهو يشدها نحوه. وأحست بضلوعها تتهشم تحت ضغطه، وشعرت ان فمه يعانقها... ويلفها ويلتهم منها حتى لم يبق لديها شيء سوى عاطفة واحدة، هي عاطفة الاستسلام لحبها.

وأفاقت من نشوتها عندما أطلق سراحها، وفك أسر ذراعيها عن عنقه، وأبعدها عنه وكأن النار التي أحرقتها لم تمسه بسوء.

وتناهى الى أذني كولي صوت قلبها وهو يدق بألم لأنها عادت تستسلم لسحره ثانية، ولكنها سرعان ما سيطرت على مشاعرها، وخضعت لحكم عقلها واستطاعت بصعوبة أن تستعيد هدوءها.

قالت ساخرة:

«انتهت اللعبة، والآن جاء دور الحديث...»

قال جيمس:

«أظن أنه لا حاجة بنا الى ذلك... يبدو عليك أنك استرقت السمع للحديث الخاص الذي دار بيني وبين بن فولي فقط لا أو نعم وان كنت أرغب في معرفة سبب المرارة التي تؤرقك».

قالت كولي غاضبة:

«مجرد لا ونعم! يا لك من شخص أناني. هل أنا فريسة لك ولجدك؟ من حقي أن أقول كلمة في الموضوع. أعلم أنني لن أكون الاداة التي تهبك لقب صاحب هذه المزرعة. أرفض أن أكون مجرد قسيمة زواج تتأرجح فوق رأسك، لتقول «تزوج هذه الفتاة، فتصبح المزرعة ملكاً لك». أعتقد أن الأمر يبدو غريباً لك عندما يصدر مثل هذا الكلام من فتاة فقيرة. ولكن... لن أتزوج بدون حب».

قال جيس ببرود:

«والحب لن يدخل في زواج يعقد بيني وبينك...»

قالت كولي بغضب:

«بالتأكيد لن يدخل. أعرف أن العم بن أخبرك بأنني متيمة بك، ولكن هذا ما لم أقصده تماماً. والحقيقة أنني قلت له أنني أحبك، وأحب العم بن والخالة وتوتي أيضاً. وبالتأكيد لن أتزوج أحداً من العائلة. لا تنس، فهمي يا جيس كل ما كنت أوه أن أراه هو أن يسود السلام بينك وبين جدك... وان كنت قد أضفيت البطولة على قضيتك معه».

أخرج جيس سيكارة ووضعها في فمه، ثم قال:

«وضعت القضية في مسارها الصحيح، أليس كذلك؟ أما مواقف الحب فما هي إلا لحظات ترفيه كدروس السباحة وركوب الخيل...»

«ولكنك وصفتها بأنها تجارب... أو دروس تحتاج اليها الطبيعة البشرية، واذا أراد المرء أن يتعلم فعليه أن يبحث عن شخص تكون لديه التجربة، وكنت أنت تتمتع بها... ولكن الرغبة لا تدوم طويلاً... ومهما كان تفكيرك بي، فانني أصبحت ناضجة بما فيه الكفاية لأن أعرف ذلك».

وأشعل جيس سيكارته، ثم سألها:

«ألا أظنك تعتقدين أن الرغبة يمكن أن تتحول الى حب؟»

قالت كولي ببرود:

«لن أضحي بحياتي كلها حتى تحين الفرصة لكي يحب أحدنا الآخر. اذا كان

العم بن اشترط عليك الزواج مني لقاء حصولك على المزرعة، يمكنك الحصول عليها بدون استخدام خيوطي التي تلعب بها. ابحث لك عن وسيلة أخرى... لأنني لن أقبل الزواج منك».

حدق جيس في وجهها، ثم قال:

«افترضي أنني نلت لقب صاحب المزرعة هذا الصباح؟»

قالت كولي وهي تشمخ برأسها:

«على هذا الشرط سأقبل خطبتك مني هذه الليلة».

راح يدرس وجهها بهدوء، ثم سألها

«هل تعتبرينها خطبة رقنية زائفة... حتى أستطيع أن أقنع بن برأيك».

أسرعت تقول:

«كلا... كلا... لن تنجح».

سحق جيس اللفافة بقدمه، وقال:

«اذن، أنت تعرفين أن عليه فعل ذلك من أجلك...»

تطلعت اليه، وقالت:

«سأشرح له الأمر وأنا واثقة بأنه سيدرك حقيقة موقفي».

«أتمنى أن يكون لي نصف ثقتك. انه لم يشف تماماً من أزمته الأخيرة».

وانساب صوت جيس هادئاً في أعماقها، وشعرت بكلماته تغرس في عقلها. وأدركت رغبته في أن يفوز بالمزرعة، وقد استغل عواطفها استغلالاً سيئاً لكي تلتقي مع رغباته. لكنها استجمعت شتات فكرها وراحت تناضل الدوامة التي دفعها اليها جيس، فقالت له:

«أنا لا أكترث كثيراً. لن أكون خطيبتك مهما كانت الظروف».

«اتهمتك مرة بأنك فتاة شديدة الحساسية لكن تلك القطة الوديعة التي أنقذتها مرة من المطر تحولت الآن الى قطة شرسة».

قاطعته وهي تشعر برجفة تسري في جسمها، قائلة:

«أرجوك... لا تذكرني بتلك الفتاة الساذجة التي كنتها ذات يوم».

وأحست بقبضة يده تعصر ذراعها، وهو يحدق في وجهها، وراح يسألها:

«ماذا حدث لتلك الفتاة التي فزعت مني أكثر من فزعها من العاصفة؟ أين الفتاة التي كانت تخاف الماء، وترتعد نظراتها وهي تمتطي ظهر الجواد؟ أين هي تلك الفتاة؟»

صاحت كولي، قائلة:

«كانت شديدة الخجل... شديدة الفزع من معارضتك، ولكنها كبرت الآن. هل تتوقع منها أن تظل محصنة ضد مشاعر الكراهية والمرارة والحقد التي تعيش في أرجاء هذه المزرعة؟ حسناً... أنا أكرهك الآن. أكره الأسلوب الذي اتبعته لاستغلالي. أكره الثقة التي وضعتها فيكما، ولتعلم يا جيس أنني أصبحت الآن جشعة أرغب في أن أكون مطلوبة لذاتي من دون أن يكون هناك ثمن لزواجي اعتقد أنك لم تتخيل أنني أستطيع البقاء في الصورة التي رأيتها أول ليلة التقينا»

قال والكلمات تخرج بصعوبة من بين أسنانه:

«كلا... لم أتصور أن تكوني لديك القدرة على الوثوب فوق الحشود التي تعترض طريقك! كنت حمامة السلام... أليس كذلك؟ ولكن ابراج الحمام لا تقام للناس. أريد منك أن تفكري بروية في الحديث الذي دار الليلة، وستعتذرين لي فيما بعد»

قالت كولي غاضبة:

«اذا كنت تفكر في أنني سأزحف اليك لأقدم لك اعتذاري، فأنني...»

عندئذ قاطعها جيس وشرر الغضب يتطاير من عينيه، قائلاً:

«لا حاجة بك لأن تقولي المزيد الذي قد تعتذرين عنه... سأعود الآن الى المنزل لأقوم باحتفال صغير مع بن. انني أراك في حالة لا تؤهلك الاشتراك في حفلنا، لذلك لن أطلب منك الانضمام الينا. طابت ليلتك يا كولي، ولتنعمي بأحلامك الوردية»

وهز جيس رأسه في كبرياء قبل أن يختفي تدريجياً في لجة الظلام وتمنت أن

تلحقه، أن تؤذيه كما أذاها، لكنه رحل عنها في كبرياء. وهو واثق بأنها ستجري وراءه لتعتذر له... لن تفعل ذلك حتى الرمق الأخير في حياتها، ولا أهمية لحبها له فانها لن تطلب غفرانه من أجل الكلام الذي نطقت به هذه الليلة.

وسمعت داني يناديها:

«كولي... ماذا تفعلين عندك؟ أخبرني جيس أنك لن تأتي للاشتراك في الحفل»

قالت كولي بصوت يكاد ينم عن اضطراب عواطفها:

«هذا صحيح»

مرت سحابة من العبوس على جبينه، وعيناه تسألانها في حيرة:

«ولكن... يجب أن يشهد الجميع الحفل»

قالت بصوت مضطرب:

«وهذا تماماً سبب عدم وجودي هناك...»

هز داني رأسه وهو يحدق في شقيقته، ثم قال:

«كولي... لم أعد أفهمك، فمنذ وصلنا الى هنا، كنت الوحيدة التي تدافع عن حقوق جيس. وفي هذه الليلة التي يعلن فيها العم بن نتيجة جهودك، تتروين هنا كالطفلة التي انتزعت منها دميتها»

تحشرجت الكلمات في حلقها ألماً. وأخيراً استطاعت أن تقول:

«أنت لا تعرف القصة كاملة يا داني»

قاطعها وهو نافد الصبر

«وأنت... لماذا لا تحاولين القاء الضوء لأستنير به في معرفة حقيقة الموضوع؟ ترى ما هي النية الميتة التي تطوف برأسك؟»

اضطربت شفتها السفلى، وتلاحقت أنفاسها، وهي تحاول أن تمنع عباراتها من التدفق. وأخيراً قالت له:

«كف عن تمثيل دور الأخ الأكبر، لم أعد في حاجة الى ذلك»

اشتعلت عيناه بالغضب الذي ثار في أعماقه لدى سماعه كلماتها فقال لها:

«أظن أنك بحاجة الى ركلة سريعة تلقي بك في مكان يناسبك...»

ثم استدار ليسير في اتجاه المنزل، فصاحت كولي تناديه:

«داني... داني... آسفة، لم أقصد أن أجرحك».

تردد قليلاً قبل أن يستدير نحوها ليقول:

«لا أظن أنك كنت تقصدين ايلامي... ولكنك أنت على صواب، فقد أصبحت الآن فتاة كبيرة، وحان الوقت لتعالجي مشاكلك بدون الاعتماد على ذراع أحد، طابت ليلتك».

أخذت كولي تكفكف دموعها، وهي ترى أخاها يسعى نحو البيت، انها تعرف جيداً كيف تتصرف!

بدأت قطرات المطر تتساقط على أفريز النافذة كأنها تقدم تحيتها الى كولي... وهي تستيقظ من نومها بعد ليلة قلقة لم يغمض لها فيها جفن، الا قليلاً، وكان الصباح داكناً، ولم تشرق فيه شمس النهار، كما أنه كان يعكس موجة الكآبة التي امتلأ بها صدرها منذ صباح اليوم السابق. وراحت تسحب نفسها من تحت الأغطية بصعوبة وهي تتطلع عابسة الى الرعد الغاضب الذي أخذ يلطم زجاج النوافذ. وتوجهت الى أحد الأدراج، وتناولت سروالاً من الجينز دست فيه ساقيها وجذبته حتى غطى وسطها، ثم ارتدت قميصاً أصفر اللون، وتناولت المشط وألقت نظرة سريعة على أنابيب مستحضرات التجميل، ولكنها هزت كتفيها باستخفاف وأعرضت عنها وفكرت من سيهتم لذا لم تصبغ وجهها بالمساحيق! وانفلتت خارجة من غرفتها في طريقها الى الصالة، مرت بالباب المفتوح لغرفة توني فتوقفت عن السير، وأدهشتها رأته يلقي ملابسه في حقيبة مفتوحة.

سألته مأخوذة:

«توني... ماذا تفعل؟»

قال لها بحدة:

«كما ترين يا أميرتي».

وواصل حشو ملابسه في الحقيبة بدون أن يتطلع اليها، فقالت له:

«انك راحل... أليس كذلك؟ الى أين أنت ذاهب؟ لماذا ترحل؟»

شرع يسير نحو الباب، والمرارة تكسو وجهه، ثم قال لها:

«أصبح أصحهم بدير الآن المملكة والقلعة، لن أبقى لأقوم بدور الأجير».

التوت شفتاه فوق كلماته، بينما قبضت أصابعه النحيلة على ذقن كولي ورفع رأسها المتجهم لتلتقي ببصره، ثم استطرد يقول:

«أنت تعرفين يا كولي... أنت لا تستمتعين بعينين كبيرتين فقط ولكن لك فم واسع أيضاً، ان الدور الذي قمت به أنت و جيس قضى على وجودي هنا في المزرعة، كنت أقتنع بحظ كبير في حياة أبي».

ثم أطلق توني ذقنها من قبضته، فتمتمت قائلة:

«لا علم لي بالموضوع الذي تتحدث عنه».

تركها توني وعاد الى سريره ليتم وضع بقية ملابسه في الحقيبة وعندما فرغ منها أغلق الحقيبة بغضب، ثم قال لها:

«واصلي ألاعيبك الصغيرة... ولكن لا تتوقعي مني أن أصدق أنك لم تكوني وراء الخطوة الأخيرة التي اتخذها بن... ابعدي عني، لقد سببت لنا كثيراً من الآلام منذ وصولك الى هنا».

انتابها الاضطراب، وأسرعت تبتعد عن الباب وقد آلمها الازدراء - المر الذي شاب صوت توني عندما طردها، وشعرت بخطواتها ثقيلة تهبط درجات السلم، وترددت قليلاً عندما وصلت الى نهاية الدرج، اذ كان طعام الافطار في انتظارها لكنها لم تكن تشعر بأي جوع.

سارت نحو الشرفة، وهي تدس يديها في جيبي سروالها، وراحت تتجول بلا هدف عندما سمعت طرقاً على زجاج احدى النوافذ، فتطلعت عبر الزجاج، فرأت

بن يلوح لها ويدعوها للدخول، وحاولت أن تبحث عن عذر ينقذها من مقابلته، ولكن جهودها باءت بالفشل فاستسلمت وعادت لتعبر الصالة وتدخل المكتب، فاستقبلها قائلاً:

«أنت بالتأكيد شعاع شمس هذا الصباح...»

بادرته قائلة:

«ولكن الجو غير مشمس في الخارج».

«كنت تفزعين من رعودنا... ولكن يبدو عليك الآن انك لم تعودي تكترثين بها، بل أصبحت لديك الشجاعة على التجول في الشرفة بدون خوف».

تطلعت كولي الى الأفق، فرأت السماء ملبدة بالغيوم، وكأنها تعكس عواطفها الغاضبة التي امتزجت بمرارة الألم، وبموج الاحباط الذي اجتاحها.

قالت له:

«لعلّ المطر يغسل الأقذار التي لحقتني من عائلة ساقدج».

سألها بن:

«هل تناولت طعام الافطار؟»

وعندما هزت رأسها بالنفي استطرد يقول:

«المعدة الخاوية تجعل اللسان حاداً، كحدة شهوتها الى الطعام».

قالت له:

«لم تنادني لتناقشني في عادات الأكل».

قال بصوت غاضب:

«طبعاً... لكنني دهشت عندما لم تشتركي في الحفل ليلة أمس».

ضحكت بمرارة، وقالت:

«لا شك أنه كان حفلاً من نوع خاص، لأنني رأيت، لتوي توني في غرفته يعد حقيبته للرحيل».

«لا تحاولي تغيير دفة الحديث يا فتاتي، أسألك سؤالاً محدداً».

قالت كولي بأدب:

«ألا تظن أن تساؤلي يحتاج الى اجابة؟»

ووقع بصرها على يديه، فرأت البياض يكسوها من طول تشبثه بقبض المقعد، وفي الحال تذكرت المناقشة الأخيرة التي دارت بينهما... فاستسلمت سريعاً... وتنهدت لهزيمتها، وقالت:

«لم أحضر حفل الأمس، لأنني كنت أرغب في مشاهدة حفل كبير».

تألقت الحيرة في عينيه، وقال:

«ولكنك كنت أنت الشخص المطلوب طوال الحفل».

سألته كولي وذقنها يرتجف وهي تكبح جماح دموعها لئلا تنساب على خديها:

«ولكني متى طلبت منك أن تشتري لي زوجاً؟»

انعقدت تقطيبة فوق جبينه، ورأت ما يشبه الشعور بالذنب، يسبق اجابته، حيث قال لها:

«لا أدري عم تتحدثين...»

فقالت له وهي مشفقة عليه:

«أمضيت بعض الوقت من ليلة الأمس مع جيس، فلا داعي لأن تبدو بريئاً، انني لا أنوي الزواج منه...»

تألقت نظرات الصقر في عينيه، وقال:

«ألا تتزوجينه، هل طلب يدك ليلة الأمس؟»

أجابت كولي

«ليس تماماً، لم أتح له الفرصة...»

ابتسم الكهل ابتسامة مرح ـ أثارت كولي وكأنه يبتسم لنفسه، ثم قال لها

«آه... لم تتيحي له الفرصة ليشرح لك الأمور... ها... ها»

بذلت كولي جهداً يائساً للتغلب على أعصابها المضطربة، وأخيراً قالت:

«ليست هناك أشياء تحتاج الى توضيح، ألمح الي أن أذعن وجود خطبة بيننا لادخال السرور الى قلبك، ولكنني رفضت».

قال بن:

«أمر طبيعي».

بدا عليها الارتباك. ثم قالت له:

«لا يبدو عليك الانزعاج من حديثي».

«وهل هذا مطلوب مني؟»

قالت متلعثمة:

«أجل... أعني... ظننت... أليس هذا هو المفروض من...»

سألها:

«كان لدي احساس بأنك كنت تقفين عند مكتبي صباح الأمس... أليس كذلك؟»

ولما هزت كولي رأسها بالايجاب، استطرد يقول:

«وأنك سمعت جانباً من الحديث الذي دار بيني وبين جيس. أليس كذلك؟»

وعادت كولي تهز رأسها بالايجاب ثانية، فأردف يقول:

«أوه، كولي، لا يفوز المرء بنتائج طيبة بالاستماع من ثقوب أقفال الأبواب».

«ولكنني سعيدة بما فعلت يا عمي بن... كيف استطعت أن تقدم المزرعة هدية لجيس اذا رضي بالزواج مني؟ ألا تظن أن لي كبريائي؟»

واستطاع الكهل ان يحتفظ بالابتسامة على وجهه، ثم قال:

«يمكنني القول بأن لك كبرياء مثل أي فرد من أفراد أسرة سافدج. أما أن أجعل هبتي المزرعة لجيس رهناً بموافقته على الزواج منك، فأظن أن ذلك كان مجرد اختبار له. كان يجب عليك البقاء حتى ينتهي الحديث كله. وعندئذ كنت ستسمعين الى رفضه قبول المزرعة على أساس هذا الشرط. لا يا كولي... وقعت على تنازلي عن المزرعة له، بلا أي شروط تتصل بك من قريب أو بعيد».

وقفت كولي مبهوتة، مشدوهة، وعندما استوعبت معنى الكلمات، تهاوت متهالكة على مقعد وثير، والتفتت الى بن وقد اغرورقت عيناها بالدموع، وقالت:

«ماذا فعلت يا رب؟ ذلك الكلام الرهيب الذي قلته له ليلة أمس... أوه عمي

بن... ماذا أفعل الآن؟ انني أحبه كثيراً...»

قال وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة:

«انني، الذي فعلته أنا بالأمس... اعتذري له وأخبريه بأنك كنت حمقاء...»

بارقة أمل تراقصت أمام عينيها عندما تذكرت كلمات جيسون التي قالها ليلة أمس الأول بأنها ستأتي اليه، وتقدم له اعتذارها.

سألت الكهل وهي تزدرد كبرياءها:

«أين هو الآن؟»

كفكف الكهل بدوره دموعه وراح يتطلع عبر النافذة، ثم قال لها:

«أنت تعرفين في مثل هذه الأحوال الجوية... انه يجمع القطيع الشارد حتى لا يدهمه الفيضان».

زحفت كولي من مقعدها والدموع تبلل خديها، واندفعت تجري من الغرفة و بن يحرك مقعده وراءها وهو يعطيها تعليماته:

«من المحتمل وجوده في القطاع الشرقي قرب جبل الصخرة الزرقاء. اختصري الطريق عبر المراعي المنخفضة، يجب أن ترتدي معطف المطر».

وكانت قد أغلقت الباب وراءها قبل أن تسمع عبارته الأخيرة. وأدرك أنها متيمة بحب جيس لأنها لم تلحظ هطول المطر، فأسرعت تجري بدون أن ترتدي معطفاً، ودفع بن مقعده حتى بلغ الشرفة. وبعد دقائق رآها تمتطي جوادها، وراحت تلوح بيدها للكهل قبل أن تعدو تحت وابل المطر.

وأخذ الجواد يقطع المرعى عدواً، وكانت الريح تلفح وجهها... وقطرات المطر تلسع وجنتيها، ولكنها لم تكترث لأي شيء... ثم وجدت الأرض بدأت في الانحدار بشدة ورأت أن تخاطر بجوادها ميستي وهو يرتقي التلال. وفي مواقع أخرى كانت الأرض موحلة، تماماً كالليلة الأولى التي جاءت فيها الى المزرعة.

أوقفت ميستي وراحت تبحث عن جيس في المنحدرات التي تحيط بها، وفي الأراضي المنخفضة، وأخذ الجواد يهز رأسه عندما بدأت الأرض تهتز تحت

قدميه، ويفزع من أصوات الرعد المدوية، فحاولت كولي أن تهدىء من روعه. وفجأة تذكرت أمراً ابتهجت له. وتذكرت الكوخ... انه مكان قريب من هنا، ولا بد أن جيس سيتوقف قليلاً هناك. انه المكان المفضل لديه.

دفعت الجواد بهازها، واستحثته على أن يخترق مفترق الشلال عبر الماء الجاري، وأن يطوي التلال طياً، ويجتاز الوديان عدواً، حتى لاح أمامها الطريق العام، فبدأت تبطىء من خطو جوادها على الأرض المنبسطة، حتى بلغت السهل الواسع المنبسط الذي سارت فيه منذ زمن بعيد. عندئذ أرخت العنان، وأطبقت يدها على السرج وتشبثت به عندما بدأ الجواد يرتقي منحدراً، وقد توترت عضلاته في كل خطوة حتى بلغا قمة المنحدر، وبعد لحظات لاح لها الكوخ تحيط به سحب الصباح الداكنة. وشريط الدخان يمتزج بالسحب والأمطار، وفي الحال أطلقت كولي صرخة فرح، وضربت جوادها باللجام تستحثه على العدو.

كان الجواد الأحمر الذي اعتاد جيس أن يمتطيه يقف أمام الكوخ، وعندما بلغت كولي المكان ترجلت عن جوادها بسرعة، وربطت اللجام بجوار جواد جيس، ثم أسرعت تفتح الباب ودخلت الكوخ وقطرات المطر تنهمر منها، وعندما توقفت تلتقط أنفاسها، أخذت عيناها تبحثان عن جيس، فرأته يسكب لنفسه قدحاً من القهوة. وفجأة أحست بالخجل والخوف. ترى ماذا ستقول له؟ ومن أين تبدأ حديثها؟

وضع جيس القدح ودار حول المائدة، ثم قال لها:

«ماذا تفعلين هنا؟»

اندفعت الكلمات من فمها سريعة، وهي تقول له:

«انني آسفة... انني مخطئة... انني حمقاء... يجب أن تغفر لي، ما كنت أقصد أن أقول لك هذا الكلام الرهيب. أغفر لي... من فضلك، أغفر لي...»

حدق في وجهها، ثم قال لها بنبرة ساخرة:

«امتطيت جوادك، وقطعت كل هذه المسافة لتقولي بأنك... في مثل هذا الطقس؟»

«طبعاً... ألا تفهم يا جيس! عمي بن شرح لي كل شيء... سمعت فقط جانباً

من حديثكما، ظننت أنك تساومه على الزواج مني...»

وجاهدت كولي لتعثر على الكلمات التي تساعده على فهم حقيقة الموقف، لكن سعادتها بدأت تتبخر.. في كل ثانية تمر وهو واقف أمامها جامد الملامح... وأخيراً قال لها:

«والآن فهمت أن الموقف كان مختلفاً، ماذا علي أن أفعل؛ أغفر لك؟»

أجابت كولي لاهثة الأنفاس:

«أجل... ظننت أنك تريد الزواج مني من أجل حصولك على المزرعة وليس بسبب اهتمامك بي».

«انك لا تظنين أنه السبب الآن؟»

قالت متلعثمة والدموع تترجرج من مقلتيها:

«لا... أقصد... لا أعرف...»

«ولا أذكر أنني تقدمت لخطبتك ليلة الأمس...»

فتمسكت بأهداب كبريائها وقالت:

«كلا... ولن أطلب الآن ذلك... كل ما أريد أن تعرفه هو أنني آسفة، ويمكنك ان تعود الى فتاتك ثانياً...»

واستدارت، وحاولت معالجة مزلاج الباب ولكن جيس أمسك بذراعها وجذبها نحوه، وهو يقول ضاحكاً:

«كولي... أنا لا أريد ثانيا».

صاحت كولي قائلة:

«دعني أرحل...»

وحاولت أن تتخلص من ذراعيه. لكنها التصقت به عندما احتواها بشدة. ثم رفع ذقنها بيده فراحت تتفرس في ملامحه وتحدق في وجهه، فقال لها بابتسامة رقيقة:

«هل أدركت يا كولي كم كنت قاسية وعنيدة ليلة أمس. لم تمنحيني الفرصة لأشرح لك. والآن يا عزيزتي، انني أحبك حباً جماً لدرجة انني أغفر لك كل شيء».

لم أتشد ثانيا يوماً، وإنما كنت أريدك أنت.»

وعندئذ مال برأسه، وعانقها برفق، وما لبث أن التفت ذراعاها حول عنقه وتنهدت وألقت برأسها على صدره، وقالت له:

«أوه... جيس... قل لي ثانية... أنك تحبني».

«أحبك، فمنذ الليلة الأولى التي التقينا فيها، انتابني احساس بأنك ستغيرين حياتي، وحاولت أن أبتعد بنفسي عنك، وبذلت جهدي لئلا تكتشفي شعوري نحوك، ولكنك لم تتركيني أغيب عنك».

ثم راح يبعد خصلات الشعر المبللة عن وجهها بيد مرتعشة فقالت له:

«كرهت عمي عندما عرض عليك المزرعة مقابل الزواج مني. كنت أعرف مدى رغبتك في الحصول عليها، ولم أدرك كيف تقاوم مثل هذا الاغراء».

لمس شفتيها بأصبعه، ثم قال:

«أحببتك حباً كبيراً... وكنت أعرف أن قبول عرضه معناه أن يضع ثمناً لهذا الحب، وهذا يعني أنه يبتذل هذا الحب».

«أوه جيس، ماذا فعلت حتى أستحق حبك؟ انني لا أعرف كيف أظهر أو أهيك اللابس أو اهتم بالزهور... كما أنني لست جميلة...»

« كرولي، أنت ملأت أيام الكهل بالبهجة، وجعلت قلب امرأة عاقر مليئاً بالحب، أنت وهبت نفسك لها وسوف أدللك طوال حياتك».

قالت له:

«أرجو أن يكون لأطفالنا عيون زرقاء مثلك...»

ولم تواصل كلامها اذ راح يضمها الى صدره، وعندما تخلصت من بين ذراعيه، سألته:

«لماذا غيرّ بن رأيه؟»

«أنت السبب... وكذلك الحوار الذي دار بينكما، لا بد أنك قلت له شيئاً جعله يغيرّ رأيه، على الأقل في الفترة التي تفصل بين حوارك، والحوار الذي دار بينه وبين توني».

وتشابكت أصابعه وراء ظهرها، وراح يحدق فيها بنظرات كلها دفء وحرارة، وسمعها تقول له:

«رأيت توني هذا الصباح يحزم حقائبه، ترى ما السبب الذي دفعه الى الرحيل؟»

«لم أبحث بدقة عن السبب... ولكن لدي احساس بأن بن أدرك أن توني كان موجوداً ليلة مصرع ريك والشيء الوحيد الذي يردده بن الآن أنه ما كان يجب عليه أن يصدر حكمه بقسوة في الفترة السابقة وأنه لن يحاول اصدار أحكام مثلها مرة ثانية».

وشرعت كرولي، تقول:

«هل تقصد أن توني كان...»

ولكن جيس رفع يده، ووضعها على فمها ليمنعها عن مواصلة الكلام ولدهشتها بدأت الأمور تتضح في عقلها. عندما تذكرت صيحة توني ذلك اليوم الذي قضته معه في الوادي... وقد أقبل مندفعاً نحوها ليقول لها:

«أخشى أن تصابي أنت أيضاً في حادثة...»

وعندما روت ذلك لجيس، قال لها:

«حسناً... المشاعر الأليمة لها صلة بالماضي وأنا متفق مع بن بألا نصدر أحكاماً عشوائية. هل تعرفين أن ثيابك مبللة؟ وأنني قد أصبت بالبلل بدوري؟ يجدر بك أن تتناولي قليلاً من القهوة، وسأحضر لك بطانية، لتتدثري بها حتى تبعث الدفء في جسمك».

وتبعته كرولي حتى بلغت الطاولة، وتناولت فنجاناً من القهوة وسار ليحضر لها البطانية، ووضعها حول كتفيها، ثم سألها:

«ألا تبدو الآن صورتنا مضحكة للغاية؟»

ضمت كرولي البطانية حول جسمها، ثم قالت:

«حقاً ما تقول. لا أدري ماذا سنفعل البطانية مع هذه الملابس المبللة التي أرتديها تحتها، في حين أنك أمرتني في المرة السابقة، وكنت غريباً، بأن أخلع جميع ملابسي المبللة قبل أن أضع البطانية فوق جسمي».

ضمها جيمس... هي والبطانية الى صدره، واحتواها بين ذراعيه ونظر في عينيها بوله ثم همس في أذنها قائلاً:

«لن أطلب منك أن تخلعي جميع ملابسك هذه المرة يا كرولي، لأن ذلك يحتاج مني الى طاقة كبيرة من ضبط النفس... ولن تفعلي ذلك حتى لو طلبت منك... أنا ... صاحب أرض سأفتح...»